اقتباسٌ من كتاب: «الجرجانيون... بمكة المكرمة» حتى بدايات القرن الخامس الهجري

د. إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا

إعداد: حسن الحاج

وأنا أبحث وأُقلّب ما في المواقع العلمية من كتب وأبحاث إذ عثرتُ على كتاب قيّم جميل يتوفّر على بحث رائع مفيد سطّره يراع الأُستاذ الفاضل الدكتور إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا؛ أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد في كلية الآداب والعلوم الاجتماعية ؛ جامعة السلطان قابوس ـ سلطنة عُمان .

وكان عنوان كتابه :

«الجرجانيون والحياة الثقافية والاجتماعية بمكة المكرمة حتى بدايات القرن الخامس الهجري». قدَّمه إلى ندوة مكّة المكرمة ؛ عاصمة الثقافة الإسلاميّة سنة ١٤٢٦ هجرية. نُشر في ٦ أكتوبر، ٢٠١٩.

موقع (وقفية الأمير غازي للفكر القرآني)

وما إن ظهر الكتاب للعيان حتى احتلَّ مكانةً كبيرة في المكتبة، وملأَ فراغاً فيها، وحظي باهتمام من شغلتهم البحوثُ التاريخيّة سواءً أكانوا أساتذةً وطلاباً أم كتّاباً

ومحقّقين .. وكيف لا يحظى بهذه المنزلة، وهو يهدف إلى بيان التبادل العلمي والثقافي بين مكة المكرمة وجُرجان أو (گُرگان) من بلاد فارس، حتى ترك ثماراً معرفية كثيرة، كان منها بيان القدرات العلمية لعلماء جرجان، وما قدموه واكتسبوه هم وتلامذتهم من إنجازات، وبناء علاقات اجتماعية في مكة المكرمة مع المكيين وغيرهم ممن وفقوا لجوار البيت الحرام، وهو جوار ـ مع كونه يحتاج إلى الالتزام الأكيد بأحكامه وآدابه، وبالتالي إلى ضبطٍ عظيمٍ للنفوس وتصرفاتها، وصبرٍ وتحملٍ غاية في الدّقة والشدّة خوف الوقوع في الآثام والتجاوزات والمحاذير ..ـ تصبو إليه النفوس المؤمنة المُتأمّلة الراجية بركات هذا الجوار وأجره العظيم خاصة نفوس أولئك العبّاد والعلماء والفقهاء والأدباء والأعيان والتجار وغيرهم القادمين من شتى البلدان والوافدين من البقاع البعيدة، ومن ألوان الشعوب والقبائل والأقوام طلباً لجوار الحرم المكي ونيل بركاته، فهذا الجوار له شأنٌ كبير وأجرٌ مضاعف!

لقد استقروا في مكة على مقربة من البيت الحرام، واندمجوا بمجتمعها المكي الأصيل حتى شكّلوا جزءًا مهمًّا من هيكلها الاجتماعي، ولكن دون أن يلغي تنوعهم في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم، وفي خصوصياتهم ومظاهرهم، حتى كأنَّ الناظر إليهم يرى وسطاً مكتظًّا ذا ألوان وخصائص متباينة، ولعلّه مؤتلفٌ بفضل الإسلام وأحكامه ومفاهيمه وآدابه وأخلاقه، وببركة السكن والجوار الطيب للمسجد الحرام، والالتزام بآدابه وضوابطه، والذي يجمع بينهم سكناً وعِشرةً .. مما يخلق جوًّا دينيًّا وإنسانيًّا، علميًّا ثقافيًّا، وترابطاً وتفاعلاً اجتماعيًّا واسعاً، وتعارفاً نافعاً.. لا فقط بين المجاورين للبيت الحرام وأهله، وبين المجاورين أنفسهم، بل بين بلدانهم وشعوبهم إذا رجعوا إليهم .. فيتمَّ ذلك التعارف القرآني الواسع المبارك:

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. سورة الحجرات: ١٣.

في أجلى صوره، وأوسع أبوابه عبر جميع مفاصله الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة .. وفي أقدس بقاع الأرض؛ حرم الله المطهر!

ولعلَّ جميع هذا يُعدُّ استجابةً لدعاء نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام حين وطأت قدماه ذلك الوادي في المرّة الأولى، وصورةً مشرقةً لتلك الأفئدة، وثمرةً مباركةً من تلك الثمرات التي تضمنها ذلك الدعاء الخالد: ﴿**رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾. سورة إبراهيم : ٣٧ .

وبعد هذا الإيجاز، نترك المؤلف يصف التواصل المعرفي والاجتماعي بين مكة وجرجان، وأنَّه لم يلقَ ما يناسبه من الاهتمام:

«ولقد لفت نظري تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة بين مكة وجرجان؛ لأنّها أي جرجان كان لها شأن عظيم في التاريخ العلمي الإسلامي، لشهرتها بكثرة النابغين من علمائها و شيوخها و فضلائها، و مع ذلك فلم يُوجه الكتاب لهذه الصلات ما تستحقه من اهتمام، فلم يفردوا لها بحثاً قائماً بذاته، وكلّ ما كتب عنها لا يعدو نتفاً متفرقة في ثنايا الحديث عن العلوم الدينية الإسلامية خاصة علم الحديث، والصلات العلمية بين الحجاز و فارس».

وقد دفعته تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة بين مكة وجرجان، وأيضاً موقف الكتّاب ؛ لمعالجتها في بحثه ، فأردف قائلاً:

«... مما دفعني لمعالجة هذا الموضوع في هذه الدراسة مستهدفاً إبراز صور تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة، ونتائجها المتمثلة في تكوين أُطر ثقافية مكية، وانتشار سريع لعلوم المكيين في جرجان وغيرها من حواضر الثقافة في الشرق الإسلامي».

ولذلك أفرد المؤلف لبيان ذلك النشاط الثقافي والعلمي والاجتماعي بين مكة

المكرمة ومجاوريها من جرجان فصولاً أربعة :

ـ المجاورون الجرجانيون والحياة الثقافية بمكة.

ـ الحجاج الجرجانيون والحياة الثقافية بمكة.

ـ مساهمة علماء جرجان في الحياة الثقافية بمكة من خلال تلاميذهم هناك.

ـ الجرجانيون والحياة الاجتماعية بمكة.

ارتأينا اقتباسها من كتابه الثمين النافع ، ونكتفي بها لمناسبتها لهذه المجلة «**ميقات الحجّ**» واختصاصها ، وما تهدف إليه: خدمة الحرمين الشريفين: مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما يتعلّق بهما ، وبفريضة الحجّ المباركة من الشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية ..

أما الفصول الأولى من الكتاب ، والتي تناول فيها المؤلف:

ـ اسم جرجان و موقعها الجغرافي و الفتح الإسلامي لها.

ـ التقسيم الإداري لجرجان في العصر الإسلامي .

ـ عناصر السكان بجرجان في العصر الإسلامي.

ـ مذاهب أهل جرجان و فرقهم الدينية و صفاتهم الأخلاقية و العلمية.

فمع أهميتها التاريخية وفوائدها العلمية والاجتماعية .. ، تركنا ذكرها لا زهداً فيها، بل لما ذكرنا أعلاه، وبسبب المساحة المتاحة إلينا في المجلة وخوف الإطالة في مقالتنا.

وهي فصول ليست ببعيدة عن القارئ الكريم ولمن أراد زيادة، فالكتاب متوفّر وميسّر بين يديه.

يقول المؤلف في ملخص البحث :

كان لمكة تاريخ ديني و اقتصادي عريق قبل الإسلام، و رغم فقدانها أهميتها

السياسية في عصر الدولة العربية الإسلامية، فإنّ في نفوس المسلمين الذين اعتبروها من أقدس البقاع عندهم ؛ فهي مسقط رأس نبيهمﷺ، و مهد دعوته، و يوجد بها الكعبة المشرفة قبلتهم، و المسجدالحرام مسرى رسولهم الكريم، كما أنها تضمّ داخل حدودها و في أطرافها مشاعر الحج الركن الخامس من أركان الإسلام. فشدوا على اختلاف ألوانهم و مذاهبهم الرحال إليها، ووفدوا عليها من كل فجّ عميق لتأدية فريضة الحج. كما استقطبت مكة المكرمة أعداداً كبيرة من طلاب العلم الذين وفدوا، و استقر بعضهم بها لمجاورة المسجدالحرام. و قد قصد بعض الجرجانيين مكة المكرمة حجاجاً و طلاباً لتأدية الفريضة و الارتشاف من علم شيوخها و العلماء المجاورين بها و الوافدين عليها، فدرسوا في حلقاتهم و أخذوا عنهم مؤلفاتهم، كما ساهم بعضهم ممن جاور بها ـ و كانوا من العلماء المشهورين ببلدهم ـ مساهمة فعالة في الحياة العلمية بها، فتحلق حولهم طلاب العلم هناك، و رووا عنهم، مما ساهم في تشكيل ثقافة بعضهم و وصولهم إلى منزلة عالية في الفقه الإسلامي. و عند رحيل الجرجانيين عن مكة المكرمة حملوا الكثير من مظاهر الحياة الثقافية بها، مما كان له الأثر الواضح على الحياة العلمية ببلادهم. و جدير بالذكر أنّ بعض الجرجانيين الذين استقروا بمكة قد تزوجوا بها، و كان لهم هناك أهل و أولاد و أموال، مما ترك بصماته الواضحة على المجتمع المكي وأردف قائلاً : «و قد عالجت هذا الموضوع في هذه الدراسة مستهدفاً إبراز صور تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة، و نتائجها المتمثلة في تكوين أطر ثقافية مكية، و انتشار سريع لعلوم المكيين في جرجان و غيرها من حواضر الثقافة في الشرق الإسلامي».

ملاحظة :

لم أجد فرقاً بين ملخص البحث الذي تصدر البحث والتقديم ، فهما شيء واحد، إلّا هذا المقطع:

ولقد لفت نظري تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة بين مكة وجرجان؛ لأنّها أي جرجان كان لها شأن عظيم في التاريخ العلمي الإسلامي، لشهرتها بكثرة النابغين من علمائها و شيوخها و فضلائها، و مع ذلك فلم يُوجه الكتّاب لهذه الصلات ما تستحقه من اهتمام، فلم يفردوا لها بحثاً قائماً بذاته، و كل ما كتب عنها لا يعدو نتفاً متفرقة في ثنايا الحديث عن العلوم الدينية الإسلامية خاصة علم الحديث، و الصلات العلمية بين الحجاز و فارس. مما دفعني لمعالجة هذا الموضوع في هذه الدراسة مستهدفاً إبراز صور تلك الصلات الثقافية و الاجتماعية المتبادلة، و نتائجها المتمثلة في تكوين أُطر ثقافية مكية، و انتشار سريع لعلوم المكيين في جرجان و غيرها من حواضر الثقافة في الشرق الإسلامي.

وأيضاً هذه العبارة: «و قد عالجت هذا الموضوع في هذه الدراسة ..» أو «مما دفعني لمعالجة هذا الموضوع في هذه الدراسة».

لا أدري فلعلَّ للمؤلف عذراً في هذا التكرار، أو أنَّه وقع اشتباهاً.

الفصول الأربعة المقتبسة:

المجاورون الجرجانيون و الحياة الثقافية بمكة:

المجاورة لغوياً تعني: السكن أو الملاصقة في السكن، و جاور المسجد أي اعتكف به، و يقال جاور المدينة أو مكة، و البناء فيهما تعني: التمتع بجوارهما.[1] و يرجع تاريخ المجاورة بمكة المكرمة في العصر الإسلامي إلى ما ورد في الأثر عن فضل الإقامة بمكة على جميع البلدان. و قد استحب كثير من العلماء المجاورة بمكة و منهم الشافعي، و أبو يوسف و محمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة، و ابن القاسم صاحب

١. الرازي، مختار الصحاح: ١٧ دار التنوير العربي، بيروت، بدون تاريخ؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: ١٤٦ المكتبة الإسلامية، استانبول، بدون تاريخ.

مالـك و غيرهـم. لما يحصـل فيها من ثواب لا يحصـل في غيرها ؛ فالصـلاة في الحرم أفضل مـن مئـة ألف صلاة فيما سـواه مـن المسـاجد، و رواية أهـل الحرمين مقدمة علـى غيرهم، و أنّ سـكانها في ثـواب دائم، و قد سـماهم الرسـولﷺ (أهـل الله)، و اختارهم الله لجواره و ميزهـم فضـلاً منه بأنـواع خاصة من الرحمات، و كـره أبو حنيفة المجـاورة بمكة، و فهم ذلـك ابن رشـد القرطبي: خـوف الملل و قلـة الاحترام لمداومـة الأنس بالمـكان، و خوف ارتـ ذنب هناك فإنّ المعصية ليسـت كغيرها و تهيج الشـوق بسـبب الفـراق. و لم يكره ابـن حنبـل المجـاورة بمكـة، و قـال: إنها فضيلـة، و ما يخـاف من ذنـب فيقابل بـما يرجى لمـن أحسـن من تضعيـف الثـواب. و يذكـر النـووي في الإيضـاح: أنّ المختار اسـتحباب المجـاورة بمكـة إلّا لمـن يغلـب عليـه الوقـوع في المحـذور.[1] و دلّـل الفـ سي المكـي على اسـتحباب المجـاورة بمكة برغبـة النبيﷺ في سـ ـاها لقوله: «والله إنك لخـير أرض الله، و أحـب أرض الله إلـى الله، ولـولا أني أخرجـت منـك مـا خرجـت». أخرجـه أصحاب السـنن، و صححه جمـع منهم الترمـذي...[2]

و تجـدر الإشـارة إلـى أنّ الحسـن البصري قد صنف رسـالة في فضل مكة و السـكن فيهـا، و ذهـب إلـى أنّ المقام بها سـعادة و الخروج منها شـقاوة، و دلّل علـى ذلك بآيات الذكـر الحكيـم و أحاديـث النبيﷺ و أقـوال الصحابـة و كذلـك بقصائد الشـعراء في فضـل مكـة و مـا خصهـا الله تعالـى مـن الكرامـة و الفضيلـة.[3] و رغم فضـل المجاورة بمكة...

---

١. الأزرقـي، أخبـار مكـة، ١٩٦٥م، ٢: ١٥٥ ؛ الفـاسي، شـفاء الغـرام ١ : ٨٤ دار الكتـب العلميـة، بـيروت، بـدون تاريـخ .

٢. الترمـذي، جامـع الترمـذي ٥ : ٦٧٩، طبعـة أحمـد محمد شـاكر، دار الكتـب العلمية، بـيروت، بدون تاريـخ؛ (وكرهـه الشـيعة الإماميـة الجعفريـة الاثناعشرية تبعـاً لأئمتهـم والأخبار عنهم:. اليوسـفي الغروي).

٣. الفاكهي، أخبار مكة ١ : ٢٨٨ـ٣٠٠ .

و قد جاور بمكة المكرمة كثير من الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله،[1] كما جاور بها بعض التابعين و الخلفاء في العصرين الأموي و العباسي.[2] و كان معظم المجاورين بمكة على مذهب السنة و الجماعة، كما جاور بها بعض أصحاب المذاهب الأخرى لا سيما الزيدية بمكة، فقد كان لهم وجود كبير في الحقبة موضوع الدراسة، و كان هؤلاء المجاورون من العُبّاد و الزّهاد و رجال العلم، و تركوا آثاراً واضحة على الحياة الثقافية و الاجتماعية بمكة. و كانت حياة هذا الطراز من المجاورين تبدأ برحلة علمية يجوبون خلالها مراكز الثقافة الإسلامية للقاء علمائهـ و الأخذ عنهم، ثمّ يأتون مكة لأداء الفريضة و طلب العلم، فيلقون بها عصا الترحال، و يؤثرون الإقامة في جوها الروحي و العلمي لمدة زمنية قد تطول دون تقصّر حسب ظروفهم و تبعاً لراحتهم، بل أنّ معظم هؤلاء المجاورين فضلوا البقاء بمكة على العودة إلى أوطانهم الأصلية حتى وفاتهم.[3]

و كان أبو سهل عبد الكريم بن محمد من أوائل علماء جرجان الذين جاوروا بمكة المكرمة. و كان قد خرج من بلده فراراً من الاستمرار في منصب القضاء الذي كان يشغله، و استقر بمكة المكرمة و جاور بها حتى وافته منيته هناك سنة نيف و سبعين و مئة. و كان القاضي أبو سهل عبد الكريم بن محمد الجرجاني قد تتلمذ على شيوخ أجلّة نذكر منهم: زهير بن معاوية، و سليمان بن هوذة، و إبراهيم بن يزيد، و سالم الخياط، و الصلت بن دينار، و أبي حنيفة النعمان. كما روى عن الفقيه المحدث عبد العزيز بن جريج القرشي المكي، و كان كما يصفه البخاري: لا يتابع في حديثه.[4] و نستدل من الروايات أنه استقر بمكة المكرمة و جاور بها في النصف الثاني

---

١ . المحبي، القرى لقاصد أم القرى : ٦٦٢ .

٢ . الفاكهي، أخبار مكة ١ : ٣٠٠ـ ٣٠٤ .

٣. أحمد عمر الزيعلي، مكة وعلاقاتها الخارجية : ١٣٧ـ١٣٨، ١٤٣ .

٤ . الفاسي، العقد الثمين، رقم ١٨٢٠، ٥ : ٤٤٥ ـ رقم ١٨٥٤، : ٤٧٨ .

مـن القـرن الثاني الهجـري، و قد تتلمـذ على يده بعض طـلاب العلم الذين سـيصبح لهم شـأن عظيـم في الفقه الإسـلامي في هذه الفترة الزمنيـة، و نذكر منهم: أبا يوسـف القاضي صاحـب أبي حنيفـة، و سـفيان بـن عيينـة، و قتيبـة بـن سـعد الخراسـاني، و ابـن إدريـس الشـافعي.[1] و كان عبـد الكريـم الجرجـاني كـما يصفـه ابن حبان مـن خيار النـاس، و كان مُرجئـاً، و وصفـه تلميـذه قتيبة بـن سـعد بقولـه: لم أر مُرجئاً خـيراً منه![2]

و قـد حـدث تلاميـذ القـاضي عبـد الكريـم الجرجـاني برواياتـه التـي سـمعوها منه، فالسـهمي يذكـر أنه سـمع عن شـيوخ الجرجـاني مـا رواه قتيبة بن سـعد عـن معلمه عبد الكريـم الجرجـاني عـن أسـانيده وصـف الصحـابي الجليـل سـلمان الفـارسي رفعة شـأن النبـيﷺ و عظـم حرمتـه، و مكانتـه السـامية في نفـوس أصحابـه و تأدبهـم في مخاطبتـه و التعامـل معه.[3] كذلك اسـتفاد تلاميذ الشـافعي بمـصر و غيرها من البلـدان التي انتشر بهـا المذهـب الشـافعي و منهـا جرجـان، برواياتـه التـي سـمعها عن شـيخه عبـد الكريم الجرجـاني بمكـة المكرمـة، و احتفـظ السـهمي ببعـض هـذه الروايـات و تتعلـق إحداها بنظرة الرسـولﷺ لبعض الظواهر الطبيعية، مثل: كسـوف الشـمس، و خسـوف القمر، و زوال النجـوم عـن مطالعهـا، و تفسـيره لهـا بأنهـا آيـات مـن آيـات الله و أنهـا لا تحدث بسـبب مـوت أحـد العظماء كـما كان بعـض أصحابـه يعتقـدون، و كذلـك حدثهﷺ عن الدجالـين و منهـم الأعور الدجال الذين سـيفتنون المسـلمين بكذبهم على الله و رسـوله، و تحذيـره لأصحابـه مـن تصديقهم.[4]

و كان الحافـظ المحـدث أبـو زرعـة أحمـد بـن حميـد الصيـدلاني أحـد مشـاهير علـماء

---

١. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٣٩.

٢. الفـاسي، العقـد الثمـين ٥: ٤٧٩؛ ابـن حجـر، تهذيب التهذيب، الطبعـة الأولى، حيدرآبـاد الدكن، ١٣٢٦هـ، ٦: ٣٧٥ـ٣٧٦.

٣. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٤٠.

٤. السهمي، نفس المصدر: ٢٣٩ـ٢٤٠.

جرجـان الذيـن وفـدوا مكة المكرمة و أثـروا في حركتها الثقافية تأثيراً كبـيراً خاصة في علم الحديـث. فقد قضى سـنواته حافظـاً يعرف علل الحديـث، و وافته منيته هنـاك. و كان أبو زرعـة الصيـدلاني يروي عن شـيوخ المحدثين في عـصره و نذكر منهم: محمـد بن الأعلى، و عمـرو بـن عـلي، و أبـا حفـص الفـلاس، و صحب المحـدث المشـهور يحيى بن سـعيد القحطـان و تتلمـذ عليـه، فأظهر نبوغـاً في علم الحديث لدرجة أنّ شـيخه يحيى بن سـعيد عهـد بابنه سـعيد إليـه ليفيده مـن علمه.[1] و لتأكيـد مكانـة أبي زرعة الصيـدلاني العلمية، و بالتـالي مـدى تأثـيره في الحيـاة الثقافيـة بالبـلاد التـي نزل بهـا و منهـا مكة المكرمـة التي جـاور بهـا و قـد بلـغ مكانة عاليـة، أنّ علماء الحديـث قد عرفوا قـدره و علوّ منزلتـه و قوة حفظـه و تأثـيره في تلاميـذه، فأبـو عمـران إبراهيـم بن هـانيء الجرجـاني الفقيه الشـافعي الـذي يرتفع نسـبه إلى المهلـب بن أبي صفـرة كان يرى الصيـدلاني أحفظ مـن الحافظ أبي زرعـة الـرازي محدث الري الذي كان يحفظ سـت مئـة ألف حديث.[2] كـما كان أبو عمران موسـى بن هـارون البزاز الإسـترآبادي يأخـذ علل الرجـال عنه و يدخلهـا في كتابه.[3]

و كان أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهـ كي (ت٢٧٢أو٢٧٩هـ/ ٨٨٥أو٨٩٢م)، أحـد أشـهر تلاميذه الذيـن أخذوا عليـه بمكة. فقد سـمع منه الكثـير، و روى عنـه اثنتي عشـرة روايـة أوردهـا في كتابـه «أخبار مكـة»، بعضها بإسـناد صحيـح، و بعضها الآخر بإسـناد حسـن، و بقيتهـا بين إسـناد ضعيف . مـتروك و منقطـع. و منها روايـة عن نقض بنـي بكـر حلفاء قريـش لعهدهـا مـع الرسـول ﷺ في الحديبية، فعـن عبد الله بـن أبي بكر و غـيره قالـوا: ثـمّ إنّ النبـي ﷺ أقـام بالمدينـة، و أقامت قريش علـى الوفاء سـنة و بعض أخـرى. ثـمّ إنّ بنـي بكـر غـدروا علـى خزاعـة بـماء لهـم بأسـفل مكـة، يقـال لـه الوتير،

١. السهمي، نفس المصدر، رقم٢، : ٢٤٠ .

٢. السهمي، نفس المصدر : ٦١، ١٣٣ .

٣. السـهمي، نفـس المصـدر : ٦١ ؛ الذهبـي، تذكرة الحفـاظ، دارالفكرالعربي، بدون تاريـخ، م١، ح٢، : ٤٢٤ .

فأصابوا منهم رجالاً.[1] و جدير بالذكر أنّ إعلان قبيلة خزاعة التحالف مع المسلمين علناً دون هيبة قريش، كان أحد النتايج المهمّة لصلح الحديبية. و كانت خزاعة تخفي حقيقة تعاطفها مع المسلمين منذ قيام دولتهم بالمدينة عن قريش حفاظاً على علاقاتها معها، و قد نقضت قريش الهدنة مع المسلمين عند ما أعانت حلفاءها بني بكر بالخيل و السلاح و الرجال ضد خزاعة، فأوقعوا بها الخسائر بالوتير، و ألجاؤوهم إلى الحرم و قاتلوهم فيه، و بلغ عدد قتلى خزاعة عشرين رجلاً. فاستنصرت خزاعة بالمسلمين، فعوّل الرسول صلى الله عليه وآله على انتهاز هذه الفرصة للقضاء على مناوأة قريش، و تحقيق رغبته في فتح مكة و ضمها إلى دولته، فوعد عمرو بن سالم الخزاعي بالمساعدة، و قال: «نصرت يا عمرو». و كان ذلك سبباً مباشراً لفتح مكة.[2]

و روى الفاكهي عن شيخه أبي زرعة الصيدلاني أيضاً أحاديث أخرى عن ميلاد عمر بن الخطاب، و نهاية ثورة عبد الله بن الزبير ضد عبد الملك بن مروان، و بعض أخبار المطربين و منهم معبد و الغريض، و بعض أخبار تتعلق بممارسات الحجاج داخل الحرم المكي الشريف.[3]

و يحتفظ السهمي ببعض الروايات التي رواها أبو زرعة الصيدلاني لتلاميذه عن شيخه محمد بن عبد الأعلى، و منها قول أبي هريرة: لاتزال التوبة مقبولة. أو قال: العمل مقبولاً حتى تطلع الشمس من مغربها.[4]

و كان أبو سعيد عبد الرحمن بن سليمان بن موسى بن عدي أحد علماء جرجان

---

١. الفاكهي، أخبار مكة، م٣، رقم٢٩١٣، : ١٠٢ـ١٠٣ .

٢. الواقدي، المغازي ٢ : ٧٨١ـ ٧٨٤، تحقيق مارسدن جوتس، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤م .

٣. الفاكهي، أخبار مكة، الأحاديث أرقام: ٢٣٦، ٢٩١٣، ٢٩١٥، ٢٥١٧، ٢١٣٢، ٢١٢٧، ١٧٣٨، ١٧٣٧، ١٧٣٣، ١٦٧٩، ١٥١١.

٤. السهمي، تاريخ جرجان : ٦١ .

الذين نزلوا مكة المكرمة و جاوروا بها، و يصفه السهمي بـ: نزيل مكة.[1] و لا ندري متى جاور هذا العالم الجرجاني بمكة، و لا نعلم مدة مجاورته بها، غير أنه يتضح من لقبه (نزيل مكة)، أنه مكث بها طويلاً. و كان أبو سعيد عبد الرحمن بن سليمان قد تتلمذ على أيدي كثير من الشيوخ و روى عنهم، و نذكر منهم: أحمد بن سعيد الرازي، و إسحاق بن إبراهيم البصري الجرجاني، و أحمد بن سلمة بن عمرو الكوفي الجرجاني، و عبد الوهاب بن علي بن عمران الجرجاني. و لا شك أنه قد استفاد من مجاورته بمكة المكرمة و تأثر و أثر إيجابياً في حياتها الثقافية، فيفهم من الروايات أنّ طلاب العلم تحلقوا حوله بمكة ينهلون من علمه، و كان منهم مكيّون و مقيمون و وافدون لأداء الفريضة. و منهم طلاب العلم الجرجانيون أنفسهم، و منهم أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ الجرجاني الذي روى لتلاميذه عند عودته إلى جرجان أحاديث نزيل مكة التي كان يحدث بها طلابه بمكة عن شيوخه، و منها:

رواية شيخه أحمد بن سلمة عن أسانيده عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «**أنا مدينة العلم و عليّ بابها، من أراد العلم فليأتها من قبل بابها**»، أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين.[2]

كما روى نزيل مكة عن شيخه عبد الوهاب بن علي بن عمران الجرجاني عن أسانيده عن جابر بن عبد الله الأنصاري حديثاً للرسول صلى الله عليه وآله عن حرمة مكة و ساكنيها و هو: «لا يسـ ـن مكة آكل الربا و لا سافك الدم و لا مشاء بنميمة»، أخرجه الصنعاني في مصنفه.[3] كما روى عن شيخه أحمد بن سعيد عن أسانيده عن المسور بن مخرمة أنّ

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٤١٦، : ٢٥٦ .

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم٧، : ٦٥ ؛ الحاكم النيشابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ح٣ أرقام٤٦٣٧ـ ٤٦٣٩.

٣. الصنعاني، المصنف، باب ما يبلغ الإلحاد ومن دخله كان آمناً، ح٥، رقم٩٢٢٤، :١٥١.

النبي صلى الله عليه وآله قال: «لاطلاق قبل النكاح»، أخرجه ابن ماجة بإسناد حسن،[1] و قد تتلمذ بعض البغداديين على نزيل مكة و استفادوا من علمه، ثمّ حدّثوا طلابهم الجرجانيين بما سمعوه منه، فالسهمي يذكر أنّ أبابكر محمد بن أحمد المفيد الجرجرائي (نسبة إلى جرجرايا إحدى القرى المشهورة ببغداد)،[2] أخبره إجازة بجرجرايا حديثاً نبوياً سمعه من نزيل مكة عن شيخه أحمد بن سعيد الرازي بإسناده عن الصحابي الجليل عمرو بن عبسة أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناد حسن.[3]

و نستدل من الروايات أنّ أبا عبد الله محمد بن حميد الوراق الجرجاني ساهم في الحياة الثقافية بمكة المكرمة. فقد استقر بها و عمل بالوراقة و هي من المهن وثيقة الصلة بالحياة الثقافية، مما أتاح له فرصة عظيمة للاحتكاك بالعلماء المكيين و المجاورين و الوافدين لأداء الفريضة، فأخذ عنهم ثمّ حدّث بما سمعه منهم بمكة أيضاً، فاستفاد منه طلاب العلم و منهم بعض أهل جرجان القادمين للحج.

و كان الحافظ أبو زرعة محمد بن يوسف بن الجنيد الكشي الجرجاني قد تتلمذ على أيدي شيوخ عصره بجرجان، و نذكر منهم: الفقيه الحافظ أبا نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الإسترآبادي و الحافظ موسى بن العباس الأزاذياري(ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، و عبد الله بن محمد بن مسلم و أحمد بن عبد الله بن زكريا الفقيه الجرجاني،[4] و جماعة غيرهم، ثمّ رحل عن جرجان في رحلة علمية جاب فيها مراكز الثقافة الإسلامية في المشرق، فأخذ عن شيوخ خراسان و نيشابور و سرخس و الري و همدان، و عند

---

١. ابن ماجة، السنن، ح١ رقم٢٠٤٨، : ٦٦٠ .

٢. القزويني، آثار البلاد : ٣٥١ .

٣. الطبراني، المعجم الكبير، ح١٢ رقم١٢٣٩٣ـ١٢٣٩٤، ١٣١٥٣ـ١٣١٥٤ .

٤. السهمي، تاريخ جرجان : ٩٩، ٤٥٤ .

ما حل بالعراق كان قد اكتمل تحصيله و مع ذلك فقد أخذ عن شيوخ العراق، ثمّ حدّث ببغداد، و دخل البصرة في عام ٣٤٧هـ/ ٩٨٤م، و جلس للتدريس في مسجدها الجامع، فأخذ عنه كثير من طلاب العلم من أهلها و من الغرباء الذين وفدوا عليها ليدرسوا على مشاهيرها، و كان السهمي الجرجاني ممن درس على أبي زرعة الكشي و كتب عنه في مسجد البصرة في شعبان سنة ٣٧٤هـ.

ثمّ ألقى عصا التسيار بمكة و جاور و حدّث بها سنين إلى أن توفي بها في سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م. و يفهم من إحدى الروايات أنه كان موجوداً بها في عام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م،[1] مما يدل على أنه جاور بها في هذا التاريخ أو قبله.

و يذكر الذهبي أنّ أبا زرعة الكشي سمع من شيوخ الحرم عند استقراره بمكة المكرمة و كتب عنهم.[2] و لقد ساهم أبو زرعة الكشي في الحركة الثقافية بمكة منذ أن استقر بها، و استفاد المكيون و غيرهم من الوافدين عليها لأداء الفريضة من علمه الغزير الذي حصّله في رحلته العلمية الطويلة، فالسهمي يذكر أنه سمع منه في سنة٣٨٥هـ/ ٩٩٠م، بعض الأحاديث النبوية التي رواها عن شيخه أبي محمد عبدالله بن محمد بن الحسن النيشابوري عن أسانيده. و كذلك سمع أبو معمر المفضل بن إسماعيل الإسماعيلي الجرجاني من أبي زرعة الكشي و كتب عنه بمكة، عند ما كان يؤدي فريضة الحج في عام٣٨٥هـ/ ٩٩٠م.[3]

و كان الحافظ عبد الغني بن سعيد ممن تحلق حول أبي زرعة الكشي و تتلمذ عليه بمكة. و يذكر الذهبي أنّ عبد الغني بن سعيد سمع من الكشي رواياته عن شيخه محمد بن عبد الرحمن الدغولي السرخسي (ت٣٢٥هـ/ ٩٣٦م)، و قد صنف كتاباً في

---

١. السهمي، تاريخ جرجان: ٤٥٥ .

٢. الذهبي، تذكرة الحفاظ، م٢، ح٣، رقم٩٢٨، :٩٩٨ .

٣. السهمي، تاريخ جرجان، رقم٩٢٧، : ٤٦٤ .

معرفة الصحابة، و منها روايته عن مصادره عن الصحابي الجليل ابن أبي أوفى أنه غزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات (أو ست عند بعض أصحاب السنن) يأكل معه الجراد.[1] و جدير بالذكر أنّ الإسلام أحل للمسلمين أكل الجراد؛ و مع ذلك فقد دعا رسول الله ﷺ على الجراد بالهلاك لإفسادها أرزاق الناس، فعن أنس بن مالك أنّ الرسول ﷺ دعا على الجراد فقال: «أللهم أهلك الجراد و خذ بأفواههم عن معاشنا و أرزاقنا إنك سميع الدعاء». أخرجه الترمذي.[2] و من مظاهر تأثر أبي زرعة الكشي بالحياة الثقافية بمكة المكرمة أنه تبحر في معرفة أنساب القرشيين، و صار عالماً بها مما جعل السهمي يعتمد عليه كمصدر مهم في تاريخه لعلماء جرجان خاصة الذين أدعوا انحدارهم من أصول قرشية، فعند ما سأله بمكة عن نسب أبي الحسين أحمد بن الحسن الجرجاني، و هل هو من ولد جرير بن عبد الملـ المكي؟ نفى ذلك.[3] و لا شك أنّ تخصص أبي زرعة الكشي في علم الأنساب جعل كثيراً مـ المكيين يرجعون إليه لتأصيل أنسابهم و تأكيدها. و يتضح من الروايات أنّ أبا زرعة الكشي كان على دراية كبيرة بأقدار العلماء و مكانتهم العلمية، فعند ما سأله السهمي عن المحدث أحمد بن محمد بن رميح النسوي الذي حدث بجرجان، قال: إنه ضعيف.[4]

كذلك جاور أبو القاسم الخيمي عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الجرجاني بمكة المكرمة سنين كثيرة و مات بها في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. و كان قد تلقى العلم على مشاهير شيوخ بلده و روى عنهم، و منهم: أبو بكر الإسماعيلي و أبو أحمد بن عدي

---

١. الذهبي، تذكرة الحفاظ، م٢، ح٣، رقم٩٢٨، :٩٩٨ .

٢. الترمذي، الجامع الصحيح، م٤، رقم١٨٢٣، : ٢٦٩ .

٣. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ١٠٢، : ٢٦٩ .

٤. السهمي، تاريخ جرجان : ١٢٢ ؛ و لا يخفى أنه قال الحاكم: ثقة مأمون. وقال ابن أبي الفوارس: ثقة. وقال الخطيب: الصحيح أنه ثقة، ثبت. وضعفه أبو نعيم وأبو زرعة الكشي، وقد حدث عنه الدارقطني، (ميزان الاعتدال، الذهبي ١ : ١٣٥). ميقات الحج .

و أبـو بكـر الصرامـي و غيرهم. و من المرجـح أنّ هذا الجرجاني المجاور قد سـاهم بفعالية في الحيـاة الثقافيـة بمكـة لطـول إقامته بهـا، و تكوينـه العلمي المتـين، و مما لا شـك فيه أنه طلـب العلم و اشـتغل به.[1]

الحجاج الجرجانيون و الحياة الثقافية بمكة.

وفـد كثير من أهـل جرجان إلى مكة المكرمـة لأداء الفريضة و تلقـي العلم على أيدي العلـماء الموجوديـن بهـا، فأخـذوا عـن المكيين و عـن علماء الأمصـار الإسـلامية الأخرى الذيـن جـاوروا و اسـتقروا بهـا، و منهـم علماء جرجـان أنفسـهم. و كان أبو عبـد الله كرز بـن وبـرة الحارثي من مشـاهير أهل جرجـان الذين تأثـروا بالحيـاة الثقافية بمكـة المكرمة و أثـروا فيهـا. و كان ينتسـب إلـى الكوفـة، و دخل جرجـان غازياً مع يزيد بـن المهلب في عام ٩٨هـ/ ٧١٦م فسـكنها و اسـتقر بها، و أصبح له بها موال، و شـيد مسـجداً في طرف سـليمان آبـاد، ظـل باقيـاً إلـى بدايـات القـرن الخامـس الهجري/ الحـادي عـشر الميلادي بقـرب قـبره. و كان كـرز بن وبـرة الحارثـي معروفـاً بالزهد و الـورع و العبـادة و الخوف مـن الله، حتـى إنـه كما يذكـر تلميذه محمد بـن فضيل عـن والده لم يرفع رأسـه إلى السـماء أربعين سـنة حيـاء من ربـه.[2] كما اشـتهر بكثـرة الصلاة...

و قـد تـردد كـرز بـن وبرة علـى مكـة كثـيراً و كان يـلازم المسـجد الحـرام و يكثر من الطـواف حـول الـ عبـة حتـى اشـتهر بذلـك. و كان يـروي عـن عبـدالله بن عمـر بعض أحاديـث النبـي ﷺ، كـما تتلمـذ علـى يـد الفقيـه المحـدث أبي محمـد عطـاء بـن أبي رباح القـرشي المكـي مولى فهر مفتي أهل مكـة في عصره (ت١١٥هـ/ ٧٣٣م)،[3] و روى كثيراً

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم٤٢٤، : ٢٦٠ـ٢٦١ .
٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم٦١٨، : ٣٣٦ـ٣٣٧ .
٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان ١ : ٣١٨ .

عـن أبي هريـرة كـما روى عـن كبـار الصحابـة ومنهـم أبـو سـعيد الخـدري و ابـن عباس و غيرهـم، و قـد اسـتفاد أهـل جرجـان من العلـوم التـي حصّلها كـرز بن وبـرة في مكة. فالروايـات تذكـر أنّ تلاميـذه تحلقـوا حولـه بجرجـان و أخـذوا منـه الأحاديـث النبويـة الشريفـة التي سـمعها بمكة، ثـمّ قاموا بدورهـم بروايتها لطلابهم في جرجـان و في غيرها مـن البلـدان الإسـلامية الأخـرى، و منهـا سـمرقند و بخارى.[1]

و كان الزاهـد أبو طيبة عيسـى بن سـليمان الدارمـي الجرجاني (ت١٥٣هـ/ ٧٧٠م)، أبـرز علـماء جرجـان الذيـن صحبوا كـرز بن وبـرة و تتلمذوا عليـه. و قد روى عنـه كثيراً مـن الأحاديـث النبويـة الشريفة التي سـمعها مـن كبار الصحابـة و التابعـين...[2] و جدير بالذكـر أنّ كثـيراً من الجرجانيـين الذين وفدوا مكـة المكرمة لأداء فريضة الحـج قد أخذوا عـن العلـماء الذين اسـتوطنوها و المجاورين حـول الحرم.

و ممـا لا شـك فيـه أنّ تلاميـذ حمـاد بـن زيـدك مـن أهـل جرجـان قـد اسـتفادوا مـن علمـه الـذي تلقـاه عـن شـيوخه بمكـة و رووه عنـه و مـن أشـهرهم: الحافـظ عـمار بـن رجـاء الإسـترآبادي و كان محدثـاً ثقـة. و إسـحاق بـن إبراهيـم بـن خالد الطلقـي المؤذن الإسـترآبادي و كان مـن أهـل الـرأي الثقـة في الحديـث.[3]

كذلـك وفـد عبـد الوهـاب بن إدريـس الجرجاني علـى مكـة المكرمة، فـأدى الفريضة و تـردد علـى حلقات العلم هنـاك، فأخذ عن علمائهـا و روى عنهم و منهم تمـام أو ثمامة. و قـد انتـشرت روايـات تمـام بـين الجرجانيين الذيـن أخذوا عـن تلاميذ عبـد الوهاب بن إدريس.

و كان عبـد الوهـاب بـن عـلي بن عمـران مـن علماء جرجـان الذيـن وفـدوا إلى مكة

---

١. السهمي، تاريخ جرجان: ٣٥٨.

٢. الطبراني، المعجم الأوسط: ٢٠١.

٣. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٥٠.

لأداء الفريضة و تلقي العلم، و يفهم من الروايات أنّ عبد الوهاب بن علي الجرجاني قد تأثر بالحياة العلمية بمكة المكرمة، فقد أخذ عن العلماء الموجودين بها، و منهم: عبد الله بن الوليد العدني المكي، و أبو الحارث المدني ؛ كما ساهم هذا العالم الجرجاني بشكل غير مباشر في الحياة العلمية بمكة، فقد ساهم في تشكيل ثقافة كثير من العلماء الذين جاوروا بمكة و أثروا في حياتها الثقافية، و منهم: عبد الرحمن بن سليمان الجرجاني نزيل مكة، و روى عنه بعض الجرجانيين و منهم أحمد بن حفص السعدي، و عبدالرحمن بن سليمان الجرجاني، و أحمد بن إبراهيم بن أبي رافع، و أبو عمران إبراهيم بن هانيء الفقيه الشافعي و غيرهم.[1]

و كان أبو أحمد محمد بن أحمد بن يحيى بن شرين المعروف بالمأمون من أهل جرجان الذين قدموا مكة في الربع الأول من ق٣هـ/ ق٩، و تتلمذ على أيدي علمائها، و منهم المحدث علي بن الجعد، و الحافظ الثقة أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن بكير القرشي المخزومي صاحب مالك بن أنس. وقد استفاد بعض الجرجانيين من العلم الذي حصّله الشريني بمكة و كتبوه عنه ثمّ حدثوا به تلاميذهم بجرجان، فالسهمي يذكر أنه سمع من شيوخه، و منهم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الصرام، و علي بن محمد بن هارون الواعظ الجرجاني روايات ابن شرين الجرجاني عن علي بن الجعد المكي.[2]

و كان أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن عبدك الوراق العدسي الجرجاني من العلماء الرحالة الذين جابوا الأقطار الإسلامية للقاء علمائها والأخذ عنهم سماعاً أو إجازة، فقد رحل إلى اليمن والتقى المحدث إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدَّبري الملقب بـ «مسند الدين» بصنعاء (ت٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)،[3] و نستدل من الروايات أنّ رحلة ابن

---

١. السهمي، تاريخ جرجان : ٢٤٨ .

٢. السهمي، تاريخ جرجان : ٣٨٦ .

٣. ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب ٢ : ١٩٠ .

عبدك العلمية كانت في مطلع شبابه، و أنه عاد بعدها إلى بلده جرجان و حدث بها تلاميذه، ومنهم أحمد بن موسى بن عيسى شيخ السهمي، بما استفاده من خلال هذه الرحلة خاصة سماعه عن الدبري و علي بن عبد العزيز.[1]

و قدم جعفر بن أحمد بن إسماعيل بن شهريل الإسترآبادي(ت٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) مكة المكرمة و أخذ عن علمائها و كتب عنهم، و نذكر منهم: سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، و عبد الرحمن بن عبد الله المقريء. و كان جعفر بن شهريل قد تتلمذ على شيوخ عصره من أهل إسترآباد و جرجان وروى عنهم، و منهم عمار بن رجاء و إسحاق بن إبراهيم الطلقي، و جعفر بن أحمد بن بهرام و غيرهم. و كان ابن عدي الإسترآبادي من رواته.[2] كما تتلمذ الحسن بن حاتم بن سهيل بن حماد الإسترآبادي على الفقيه سعيد بن عبد الرحمن المخزومي بمكة و سمع منه.

و كان الفقيه أبو الحسن يوسف بن إسحاق الجرجاني ممن وفد على مكة المكرمة و درس على شيوخها و منهم: عبد الرحمن بن عبد الله المقريء و روى عنه، و كان هذا الفقيه الجرجاني يروي كذلك عن شيوخ بلده، و منهم أبو نعيم ابن عدي الإسترآبادي و جماعة غيره.[3]

و كان الحافظ الحجة أبو نعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الإسترآبادي (٢٤٢ـ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، الرحال الجوال من مفاخر أهل جرجان الذين نهلوا من علوم أهل الحجاز و استفادوا منها، فالذهبي يذكر أنه كتب بالحرمين. و كان ابن عدي قد تتلمذ على شيوخ عصره بجرجان و روى عنهم و منهم: إسحاق بن إبراهيم الطلقي، و محمد بن عيسى الدامغاني، و عمار بن رجاء، و تخرج على أبي زرعة و أبي

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم٨٨، : ١٠٥ .

٢. ابن حنبل، مسند أحمد ١ : ٣٨٩ .

٣. السهمي، تاريخ جرجان، رقم١٠٠١، : ٤٩٥ .

حاتم. كما روى في رحلته أيضاً عن علماء أهل العراق و مصر و خراسان.[1] و عند ما وفد إلى مكة و جلس إلى أبي القاسم الصوفي عبد السلام بن محمد بن أبي موسى المخزومي شيخ الحرم المجاور بمكة سنين طويلة (توفي بمكة سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م)، و كان ممن جمع علم الشريعة و الحقيقة و الفتوة و حسن الأخلاق، و روي عنه.[2] و يتضح من المكانة الرفيعة التي بلغها أبو نعيم الجرجاني في الفقه الإسلامي، قيمة العلم الذي حصّله في الحجاز و البلدان الإسلامية الأخرى، فكان من أئمة المسلمين مقدماً في الفقه و الحديث، و من الحفاظ لشرايع الدين مع صدق و تقيظ و ورع، و كان أحفظ فقهاء عصره للفقهيات و أقوال الصحابة.[3]

و قد أدرك طلاب العلم و العلماء مكانة أبي النعيم العلمية، فشدوا الرحال إليه و قصدوه للاستفادة منه و النهل من فيض علمه، فالسهمي يقول: و كانت الرحلة إليه في أيامه.[4] و يذكر الذهبي أنّ ابن صاعد قد حدث عن ابن عدي مع تقدمه في العلم، كما حدث عنه أيضاً أبو علي الحافظ، و أبو إسحاق المزكي، و أبو بكر الجوزقي،[5] مما يدل على أنه أصبح أحد شيوخ العلم في عصره، و أنّ جرجان صارت إحدى مراكز الثقافة الإسلامية. و قد ترك الحافظ ابن عدي الإسترآبادي آثاراً علمية مهمة تتمثل في بعض التصانيف في الفقه، و كتاب الضعفاء في عشرة أجزاء.[6]

و وفد الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، المعرف بابن القطان مكة في صدر شبابه في أواخر القرن الثالث الهجري، و كان قد كتب الحديث في عام

---

١. الذهبي، تذكرة الحفاظ، م٢، ح٣، : ٨١٧ .
٢. الفاسي، العقد الثمين ٥: ٤٣٠ـ٤٣١ .
٣. الذهبي، تذكرة الحفاظ، م٢، ح٣، : ٨١٧ .
٤. السهمي، تاريخ جرجان : ٢٧٦ .
٥. الذهبي، تذكرة الحفاظ، م٢، ح٣، : ٨١٧ـ٨١٨ .
٦. الذهبي، نفس المصدر .

٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، عن أحمد بن حفص السعدي و غيره بجرجان قبل أن يرحل في طلب العلم عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م، فأخذ عن شيوخ العراق والشام ومصر. ويفهم من الروايات أنه سمع بمكة على شيوخها و المجاورين بها. و منهم عبد الرحمن بن سليمان بن عدي الجرجاني «نزيل مكة».[١] و كان أبو أحمد عبد الله بن عدي حافظاً متقناً لم يكن في زمانه أحد مثله، و كان قد جمع أحاديث مالك بن أنس و الأوزاعي، كما جمع أيضاً أحاديث سفيان الثوري و شعبة و إسماعيل بن أبي خالد و جماعة من المقلين، وصنف كتاباً بعنوان «الانتصار» على أبواب مختصر المزني في فروع الشافعية وهو مفقود، و معجماً عن شيوخه الذين زادوا كما يذكر بنفسه على ألف شيخ و هو مفقود، كما صنف كتاباً في ضعفاء المحدثين اسمه «الكامل» في ستين جزءاً، أخرج فيه اثنا عشر ألف حديثاً مسنداً، و اثنا عشر ألف مقطوع.[٢] و هو كتاب مهم جامع، و قد استهله ابن عدي بالحديث عن عظم و هول و سوء عاقبة الكذب على رسول الله ﷺ، ثمّ ترجم بعد ذلك لأعلام الأئمة الذين استجازوا الكلام في الرجال ذباً عن بيضة الدين و حفظاً من كلّ حاقد لئيم، و صنف ابن عدي كتابه على حروف المعجم، ليكون أسهل على مَن طلب رواياتهم. و في ترجمة كلّ راوٍ مترجم حديثاً أو أكثر من غرائبه و مناكيره. و كان ابن عدي يبدأ باسم صاحب الترجمة، ثمّ يذكر كنيته و لقبه و بلده، و بعض أسانيده ثمّ يذكر أقوال الأئمة في الجرح و التعديل و غيرهم مدحاً أو ذمّاً، فلم يحاج في أحكامه. و بين ذلك عند ما قال: فلعل من قبح أمره أو حسنه تحامل عليه أو مال إليه. و لم يعتمد ابن عدي في ذكره لأقوال العلماء نمطاً معيناً فمرة يقدم البخاري و مرة ابن معين. و جدير بالذكر أنّ العلّامة الكوثري ألّف كتاباً خاصاً في نقد كتاب الكامل، سماه «إبداء وجوه التعدي في كامل ابن عدي» لا يزال مخطوطاً.[٣]

---

١. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٥٦ـ٢٥٧، ٢٦٦ـ٢٦٧.

٢. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٧٦؛ و يوجد من كتاب الكامل عدة نسخ.

٣. ابن عدي الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال ١: ١ ـ ٢.

و يتضح من آثار أبي عبد الله بن عدي الجرجاني العلمية أنه تأثر كثيراً بالعلوم التي حصّلها بمكة و غيرها من البلاد التي درس بها، و أنه يدين بالفضل في تكوينه العلمي المتين إلى هؤلاء العلماء الذين درس عليهم خاصة شيخه نزيل مكة، كذلك أثرت ثقافته العلمية المكية في تلاميذه بجرجان، فاستفادوا من كتابه الكامل على وجه الخصوص، و كان فيه الكفاية في علم الجرح و التعديل، فالسهمي يذكر أنه سأل الدار قطني أن يصنف كتاباً في الضعفاء فرفض و أرشده إلى كتاب ابن عدي و قال: فيه كفاية لا يزاد عليه.[1]

و قد سمع ابن عدي عن شيخه عبد الرحمن بن سليمان بن عدي بمكة أخباراً مهمة من سيرة النبي صلى الله عليه وآله ثمّ رواها لتلاميذه بجرجان، و نستدل من الروايات أنّ علم ابن عدي قد انتشر بعد وفاته عن طريق تلاميذه في مكة و جرجان، فقد كان أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الخيمي المجاور بمكة أحد تلاميذه الذين درسوا عليه و أخذوا منه. و لا شك أنه حدّث بما سمعه منه بمكة أثناء جواره بها.[2]

و كان سعيد بن عثمان من العلماء الجرجانيين الذين ساهموا في الحياة الثقافية بمكة المكرمة، فقد حدّث بها و تتلمذ عليه كثير من طلاب العلم الذين تحلقوا حوله هناك، فأخذ منه عبد الله بن محمد السعدي رواياته عن شيوخه عن عبدالله بن عمر، كما أخبر عنه حفص بن أحمد بن عمران الشيباني عن شيوخه قيام أنس بن مالك بأداء الصلاة كما كان يؤديها الرسول صلى الله عليه وآله و هي صلاة حسنة لم يطول فيها. كذلك استفاد سعيد بن عثمان الجرجاني من العلماء الذين لقيهم بمكة و روى عنهم، و منهم محمد بن إسماعيل بن أبي فديك الذي أخذ عنه كثيراً. و تتضح قيمة الروايات التي سمعها الفقيه الجرجاني عن ابن أبي فديك عن شيوخه، أنها أصبحت مصدراً مهمّاً لتلميذه

---

١. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٦٧.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٧، :٦٥.

ابـن أبي الدنيـا صاحـب كتاب القبـور خاصة أنها توضح بجـلاء بركة زيـارة قبر النبي ﷺ بالمدينـة المنـورة. و منهـا رواية أنس بن مالك عن الرسـول ﷺ أنه قال: «مـن زارني بالمدينة محتسـباً كنـت له شـفيعاً و شـهيداً يـوم القيامـة»، أخرجـه البيهقي في شـعب الإيـمان.[1] و منهـا أيضـاً روايـة أحـد الأوائـل أنـه قـال: «بلغنا أنـه من وقـف عند قـبر النبـي ﷺ فتلا هـذه الآيـة: ﴿إِنَّ اللَّـهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾،[2] قـال: صلـى الله عليـك يـا محمـد، حتـى يقولهـا سـبعين مـرة، ناداه ملـك: صلـى الله عليك يـا فلان، لم تسـقط لـك حاجة».[3]

و تذكـر الروايـات أنّ أبـا زرعـة أحمـد بـن محمـد بـن أحمـد بـن هـارون الإسـترآبادي انتقـل مـن بلـده إلى مكـة المكرمة ليـدرس بهـا. و كان قد روى عن شـيوخ بلـده، ومنهم أبـو نعيـم عبـد الملـك بـن عـدي و جعفـر بـن شـهريل. و يفهم مـن روايـة السـهمي أنه نهـل مـن علـوم مكة الكثـير، وبعد مـا تأهل بهـا خرج منهـا على طريـق البصـرة في عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، ففقد.[4]

و كان أبـو القاسـم عبيـد الله بـن أحمـد الجرجـاني البـزاز مـن علـماء جرجـان الذيـن سـاهموا في الحيـاة الثقافيـة بمكـة، و كان قـد أخـذ عـن الربيـع بـن سـليمان و روى عنـه، و تذكـر الروايـات أنّ بعـ المكيين قـد تتلمذوا عليه بمكـة و رووا عنه، و منهم يوسـف بـن أحمـد بن يوسـف بـن الدخيـل الصيـدلاني المكـي (ت٣٨٨هـ/ ٩٨٨م).[5]

وكان الإمـام شـيخ الإسـلام أبوبكـر أحمـد بـن إبراهيـم بـن إسـحاق بـن العباس

---

١. البيهقي، شعب الإيمان: ٥٠.

٢. سورة الأحزاب: ٥٦.

٣. السهمي، تاريخ جرجان: ٢٢٠ـ ٢٢١.

٤. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ١٠٥٠، : ٥١٣.

٥. الفاسي، العقد الثمين ٧: ٤٨٢.

الإسماعيلي الجرجاني (٢٧٧ـ٣٧١هـ/ ٨٩٠ـ٩٨١م) من أبرز علماء الحديث في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. و كان قد تتلمذ في صغره على إبراهيم بن هانئ شيخ الشافعية بجرجان، فأظهر نبوغاً كبيراً، كما نهل من الثقافة المكية بطريقة غير مباشرة و هو بعيد في العاشرة من عمرة، فقد سمع من علماء جرجان بين عامي ٢٨٧ـ٢٨٩هـ/ ٩٠٠ـ٩٠٢م، رواياتهم عن شيوخهم عن العلماء المكيين وكتبها عنهم،

... وتذكر الروايات أنّ أبابكر الإسماعيلي خرج من جرجان في رحلة علمية إلى نساً يطلب الحديث، فقرأ علي الحسن بن سفيان مسنده و غيره من أمهات الكتب، كما قام برحلة علمية ثانية مع بعض أقاربه إلى بغداد في عام ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، فأخذ عن شيوخها و روى عنهم.[١] و عند عودته تتلمذ علي وجوه علماء الحديث بجرجان، ومنهم عبدالرحمن بن عبد المؤمن بن خالد المهلبي (ت ٣٠٩/ ٩٢١م) وكان صدوقاً ثبتاً يعرف الحديث،[٢] كما روى عن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن زهير القرشي (ت٣١٦هـ/ ٩٢٨م)،[٣] وغيرهما. و نستدل من الروايات أنه قدم إلى مكة و نهل من ثقافتها، فقد تحلق حول شيوخها و المجاورين و الوافدين عليها و سمع منهم، فالسهمي يذكر أنه جلس إلى أبي عبدالله محمد بن حميد الوراق الجرجاني بمكة، وأخذ عنه عن أسانيده بعض الأحادث النبوية الشريفة.[٤]

وكان أبوبكر الإسماعيلي جيد القراءة غزير العلم والفهم والجلالة، وكان ذا حديث حسن، ووصفه بعض شيوخ بغداد بقولهم: «كان مقدما في جميع المجالس، وكان أذا

١. السهمي، نفسه: ١٠٩.
٢. السهمي، نفسه، رقم ٤١٥، :٢٥٥.
٣. السهمي، نفسه، رقم ٤١٨، :٢٥٧.
٤. السهمي، نفسه، رقم ٨٤٣، :٤٤٤.

حضر مجلساً لا يقرأ غيره»، وصنف كتبا كثيرة منها: «الجامع على جامع الصحيح للبخاري»، وبعض المجموعات والتصانيف الفقهية. وأما كتابه الجامع فليس فيه أحاديث مستقلة زائدة على البخاري، وإنما تحصل الزيادة في بعض المتون وقد طافت شهرته ومصنفاته الآفاق، وكان علماء مصر والعراق وغيرها يسألون تلاميذه عنها. وكانت الرحلة إليه في عصره، فالسهمي يذكر أنّ طلاب العلم من مختلف الآفاق كانوا يقصدون مجلسه بجرجان. مما يدل على عظم مكانته العلمية. ولا شك أنه ساهم في نشر العلوم التي حصّلها على مدار حياته العلمية، ومنها علوم المكيين عندما كان يحدث بها تلاميذه، فالسهمي يذكر أنه سمع منه الأحاديث النبوية الشريفة التي سمعها صغيراً بجرجان، وتلك التي سمعها بمكة على شيوخه هناك.[1]

وكان الإمام أبو سعد إسماعيل (٣٣٣ـ٣٩٦هـ/ ٩٤٤ـ١٠٠٥م) ابن الإمام أبي بكر أحمد بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي، من مفاخر علماء جرجان الذين نهلوا من الثقافة المكية. ويُعد هذا الإمام نموذجاً للعالم الموسوعي الذي يسعى إلى توسيع معارفه رغم أستاذيته وألمعيته وتقدمه في العلوم، فقد كان إمام زمانه في الفقه الشافعي وأصول الفقه، وصنف كتاباً كبيراً في أصول الفقه بعنوان «تهذيب النظر»، وكتاباً آخر في الأشربة رد على الجصاص، كما كان عالماً في العربية والكتابه والشروط والـ لام. وقد قدم مكة لأداء الفريضة والأخذ عن علمائها في عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وهو في الخمسين من عمره، فحج في نفس العام، ومكث بمكة وحج ثانية في العام التالي، ثم رجع إلى وطنه في عام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. وكان يرافقه أولاده الخمسة في هذه الرحلة كما

١. السهمي، نفسه، :١١٠ـ١١١، ١١٥ـ١١٦، أكرم ضياء العمري، بحوث في تاريخ السنة المشرفة، :٣٥٨. وعن ترجمته أنظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٢: ٩٤٧، ح٣، المعين في طبقات المحدثين، رقم ١٢٨٦، :١١٥، السبكي، طبقات الشافعية، ح٣، :٧، ابن كثير، طبقات الشافعية، ١ : ٢٩٧ـ ٢٩٩، رقم ٢٠٢، السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم ٨٦٧، :٣٨١، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح٣، :٧٥.

سنرى.[1]

و لا شك أن الإمام أبا سعد الإسماعيلي استفاد من فترة وجوده بمكة، فقد ساهم بفعالية في الحركة الثقافية بها مُتعلماً ومُعلماً، فالروايات تذكر أنه روى عن أبي بكر محمد بن إبراهيم الشافعي، ومحمد بن إسحاق الفاكهي المكي (مسنداً من طريقه)، ودعلج بن أحمد السجزي، والإمام أبي العباس الأصم محمد بن يعقوب بن يونس النيسابوري (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٩م) الملقب بـ «محدث الشرق»،[2] وكان محدث عصر بلا مدافعة، وغيرهم. وقد تحلق حوله طلاب العلم م المكيين وغيرهم من المقيمين بها والوافدين عليها لأداء الفريضية، فحدثهم في أصول الفقه خاصة الفقه الشافعي، كما حدثهم بما سمعه من علماء مكة. ويتضح من الروايات أنّ الإمام أبا سعد الإسماعيلي ساهم في نشر الثقافة المكية في كثير من البلدان التي زارها عند عودته من رحلة الحج؛ فكان يحدث تلاميذة بما استفاده بمكة، وتخرج على يده جماعة من الفقهاء من أهل جرجان وطبرستان وغيرهما من البلدان،[3] فالسهمي الذي رافقه في رحلته وحج معه

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ١٧٠ ، :١٤٧. تحتفظ المصادر بأبيات شعرية للإمام أبي سعيد الإسماعيلي تدل على كثرة عبادته و اهتمامه بأمور الدين و النصيحة للمسلمين، و توضح إيضاً تمسـ ه بالمذهب الشافعي، و منها:

إني ادخرت ليوم ورد منيتي	عند الإله من الإمور خطيراً
قولي بأن إلهنا هو أوحد	و نفيت ع شريكه و نظيراً
و تمسكي بالشافعي وعلمه	ذاك الذي فتق العلوم بحوراً

(السهمي، نفسه، :١٤٨ـ١٤٩، القزويني، آثار البلاد، :٣٥٠).

٢. عن ترجمته راجع: السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم ٨٠٥ ، :٣٥٤. وقد تتلمذ كثير من أهل جرجان على يد محدث الشرق وكتبوا و رووا عنه كثير من الأحاديث، حتى اشتهر ذكره ببلدهم وصارت له مدرسة للحديث بها. لمزيد من التفاصيل راجع: السهمي، نفسه، تراجم : ١١١، ١٦٧، ٢١٤، ٤٢٣، ٥٨٦، ٨٧٩، ٨٩٧، ٩٦٢، ١٠٣١.

٣. السهمي، نفس المصدر، :١٤٧.

حجتـه يذكر أنه سـمع منـه بمكة وبغـداد روايتـه عن الفاكهـي عن أسـانيده ...

كذلـك كان أخـوه الفقيـه الشـافعي أبـو نـصر محمـد بـن الإمـام أبي بكـر الإسـماعيلي (ت٤٠٥هـ/ ١٠١٤م) مـن مشـاهير علـماء الحديـث الجرجانيـين الذيـن اسـتفادوا مـن علـو المكيـين. ومـن المرجح أنـه نهل منها منـذ صغره عن طريق سـماعه من والـده، ومن شـيخه الحافظ أبي يعقوب إسـحاق بن إبراهيـم بن محمد البحري الجرجـاني (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٩م)، فالسـهمي يذكـر أن أبانـصر الإسـماعيلي كتـب عن شـيخه أبي يعقـوب البحري الحديـث الكثـير.[1] و كان أبـو يعقـوب البحـري يـروي لتلاميـذه الجرجانيـين أحاديـث الرسـول ﷺ بروايات شـيوخه بأسـانيدهم عـن كبار الصحابـة... كما كان يُملي ما سـمعه من شـيوخه بأسـانيدهم عن بعـض العلـماء المكيين...

وكان أبونـصر الإسـماعيلي قـد تتلمـذ عـلى يـد عدد مـن شـيوخ الحديـث الجرجانيين والعلـماء الوافديـن عليهـا، وكتـب و روى عنهـم، ونذكـر منهـم: أبـا العبـاس محمـد بن يعقـوب الأصـم (مُحـدث الـشرق) وكتـب عنـه الحديـث الكثـير، وأبـا العبـاس أحمد بن عبـدالله بـن عتـاب الجرجـاني، وأبـا القاسـم عبـدالله بـن إبراهيـم بـن يوسـف الآبندوني الجرجـاني الزاهـد وكان ثقـة مأمونـاً فيما يرويـه، وأبا علي الحسـن بن يعقوب بن إسـماعيل السـجزي نزيـل جرجـان وكان مدافعـاً عـن الدين والسـنة، وأبا الحسـن علي بـن الفضل الفقيـه البغـدادي المعـروف بالخيوطـي، وأبا الحسـن علي بن محمـد بن عبدالله بن يوسـف المقـدسي.[2] ويتضـح مـن الروايـات أنـه لم يكتـف بـما حصّلـه مـن العلـوم على يـد العلماء بجرجان،بـل خـرج منهـا في رحلة علمية طالبـاً المزيد مـن علوم الحديث على يد شـيوخه في مراكز الثقافة الإسـلامية في المشرق، فشّـد الرحال إلى العـراق، والري، وهمدان، وكتب عـن علـماء الحديـث هنـاك، ثـم وفـد إلى مكـة فـأدي الفريضـة، و تحلـق حـول شـيوخها

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٨٨٣ ، :٤٥٣.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، تراجم، : ٦٣، ٢٤٨، ٤٤٤، ٥٢٧، ٥٢٨، ٨٨٣.

والعلماء الوافدين عليها والمجاورين بها، فأخذ منهم وكتب الحديث عنهم.[1] وهكذا ساهمت الثقافة المكية في تكوينه العلمي المتين، مما سيترك أثراً واضحاً فيما وصل إليه من مكانة علمية رفيعة. فالسهمي يصفه بأنه كان يعرف الحديث ويدري، وكان له جاه عظيم وقبول عند الخواص والعوام في كثير من البلدان الإسلامية التي حلّ بها. ولقد صنف أبو نصر الإسماعيلي كتاباً فيماً في الحديث بعنوان «العقد» تحلى به.[2] ولا شك أنه اعتمد في تأليفه على أصوله التي جمعها ببلده وبالبلدان الأخرى التي تعلّم فيها ومنها مكة.

ونستدل على ارتفاع مكانة أبي نصر الإسماعيلي العلمية وعظمها، بل واعترف أئمة الحديث في عصره بها وإجازتهم له، أنه ترأس في حياة والده الإمام أبي بكر الإسماعيلي وبعد وفاته؛ فقد عقد مجلساً للإملاء في مسجد الصفارين بجرجان يوم السبت من كل أسبوع منذ عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، وحتى وفاته في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. وقد تحلق حوله في هذا المجلس كثير من طلاب العلم الجرجانيين والوافدين، وكان السهمي من أبرز تلاميذه الذين سمعوا منه وكتبوا عنه، وقد احتفظ بسماعه منه واعتمد عليه كثيراً في كتابه تاريخ جرجان.[3] ولا شك أنه حدّث تلاميذه برواياته التي حصّلها في حياته العلمية، و منها رواياته التي سمعها بمكة من شيوخه بإسنادهم عن بعض العلماء المكيين، فساهم بذلك في نشر ثقافة المكيين بينهم.

وكان الجرجانيون حريصين على تعليم أبنائهم واصطحابهم إلى مجالس العلم، وقد حرص بعضهم على أن يرافقوهم في رحلاتهم العلمية لتحصيل العلم على شيوخ الأمصار الإسلامية. وكان بنو الإسماعيلي من أشهر بيوت العلم بجرجان، وقد

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، :٤٥٣.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، :٤٥٣.

٣. السهمي، تاريخ جرجان، صفحات متفرقة: ٩٧ـ٩٨، ٢٦٦، ٢٦٠، ٢٧٥، ٢٢١، ١٨٦.

حـرص بعـض أفـراد هـذا البيت عـلى تخريج أولادهـم في العلـوم تخريجـاً حسـناً، فكانوا يصطحبونهـم في رحلاتهـم العلميـة لمقابلـة العلماء والتتلمـذ على أيديهم. فالسـهمي يذكر أنّ الإمـام أبـا سـعد إسـماعيل بـن أبي بكـر الإسـماعيلي قـد حمـل أولاده الخمسـة، وهـم: أبو معمـر المفضـل،[1] وأبـو الحسـن مبـشر،[2] وأبو الفضـل مسـعدة،[3] وأبو سـعيد سـعد،[4] وأبو العـلا السـري،[5] إلى مكـة لأداء الفريضـة في عـام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، وبقـي هـؤلاء الأولاد مـع والدهـم هنـاك إلى أن حجوا ثانية في عـام ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، ثـم رجعوا معه إلى جرجـان في عـام ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م.[6]

وقـد نهـل هـؤلاء الأبنـاء مـن الثقافـة الإسـلامية خـلال وجودهـم بمكـة المكرمة، فتحلقـوا حول علمائهـا والمجاورين بها والقادمين لأداء الفريضة، وسـمعوا من يوسـف بـن الفضيـل وأبي زرعة الكـشي الجرجاني وجماعة غيرهـم، وكتبوا عنهـم، وكان جدهم الإمـام أبـو بكـر الإسـماعيلي و والدهـم الإمـام أبو سـعد قد اهتـما بتعليمهـم وتخريجهم تخريجـاً حسـناً منـذ صغرهـم، فيفهـم مـن الروايـات أنّ الإمـام أبا بكـر الإسـماعيلي قد خص أبا العلا السرى بسـماع تفسـير شـبل في عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م، وهو بعـد في الثامنة مـن عمـره، كـما حدثـه هـو وأخـاه أبا معمـر المفضـل بأحـادث محمد بـن عثـمان بن أبي شـيبة صاحـب المصنـف (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م). ويذكـر السـهمي أنّ أبا معمـر المفضل قـد روى عـن جـدّه الكتـب الكثـيرة، وسـمع منـه كتابـه الجامع عـلى جامـع الصحيح للبخـاري وغـيره مـن المجموعـات والتصانيف والأمـالي. ويبدو أنـه أظهر نبوغـاً كبيراً

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٩٢٧، :٤٦٤_٤٦٥.

٢. السهمي، نفسه، رقم ٩٢٩، :٤٦٥.

٣. السهمي، نفسه، رقم ٩٢٨، :٤٦٥.

٤. السهمي، نفسه، رقم ٣٦١، :٢٢٦.

٥. السهمي، نفسه، رقم ٣٦٠، :٢٢٦.

٦. السهمي، نفسه، :١٧٠.

في ذلك مما جعل جده يثني عليه ويقرظه، فقال عنه إنه: «له سبع سنين يحفظ القرآن ويعلم الفرائض وأصاب في مسألة أخطأ فيها بعض قضاتنا».[1] كذلك ضبط لهم والدهم الإمام أبوسعد سماعهم، ثم حملهم معه في رحلة علمية في عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م إلى بغداد، فسمعوا على مشاهير علمائها ومنهم أبو الحسن الدار قطني، سمعوا منه أكثر كتبه ومصنفاته، كما سمعوا من أبي حفص بن شاهين وأبي الحسن الختلي، وأبي حفص الكتاني، وعبيدالله بن حباجة وغيرهم، كما رحلوا أيضاً إلى الكوفة والري وهمدان، والمدينة المنورة وسمعوا من علمائها. وكانوا قد تتلمذوا أيضاً على أيدي شيوخ جرجان، ومنهم الإمام الحافظ أبو أحمد محمد بن أحمد الغطريفي الجهم (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)،[2] وأبويعقوب بن إبراهيم السهمي، وعمهم أبو نصر محمد بن أبي بكر الإسماعيلي وغيرهم من الغرباء.[3]

وقد أفاد أبناء الإمام أبي سعد الإسماعيلي تلاميذهم الجرجانيين بما درسوه في مكة وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية، فعند عودة أبي العلاء السري من رحلته العلمية جلس لتدريس الفقه والفرائض وتخرج على يده جماعة، كما آلت إليه هو وأخيه أبي معمر المفضل رئاسة الفتيا بعد وفاة والدهم،[4] ويصفهم السهمي بقوله: إنّ أبامعمر قد صار إماماً مقدماً في العلوم، أما أبو العلاء، فإنه كان عالماً في الفقه والأدب.[5] وتجدر الإشاره إلى أنّ بقية أخواتهما أبا سعيد سعد وأبا الفضل مسعدة وأبا الحسن مبشر قد

---

١. السهمي، نفسه، :٤٦٤، العمري، المرجع السابق، :٣٠١، ٣٩٨ـ٣٩٩.

٢. عن ترجمته راجع: السهمي، نفسه، رقم ٧٧٩، :٤٣٠ـ٤٣٢ ؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ٢ : ٩٧١،ح٣؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم ٨٨٢، :٣٨٧ ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح٣، :٩٠.

٣. السهمي، نفسه، :٤٦٤، ٢٢٦ـ٤٦٥ ؛ و راجع أيضاً: السبكي، طبقات الشافعية، ح٢، :٤٠٠.

٤. السهمي، نفسه، :٢٢٦ـ٤٦٥.

٥. السهمي، نفسه، :١٤٨.

سـمعوا من جميـع العلماء الذين سـمعا منهما خـلال رحلتهـم العلمية.[1]

وكان المحـدث أبـو يعقـوب يوسـف بـن إبراهيـم بـن مـوسي بـن إبراهيـم السـهمي القـرشي من علماء جرجان الذين سـاهموا بفعاليـة ـ تأثراً و تأثـيراً ـ في الحياة الثقافية بمكة. فقـد قدمهـا كما يذكـر ابنه حمزة السـهمي صاحـب تاريخ جرجـان وحدّث بهـا، وكان قد حـدّت بغيرهـا مـن المدن الإسـلامية التـي زارها، ومنهـا بغـداد والكوفة والـري وهمدان بالإضافـة إلى بلـده جرجان.[2] ويتضح عمق مسـاهمة هذا المحدث في الحيـاة الثقافية بمكة إذا علمنـا متانـة تكوينـه العلمـي وأصالة مصـادر معرفته، فقـد درس على شـيوخ عصره بجرجـان، و روى عنهـم، ومنهـم: أبـو نعيم عبـد الملك بن محمـد بن عـدي، وعبدالله بن محمد بن مسـلم، وموسـى بن العبـاس، وعلي بن محمد بـن حاتم وعلي بـن مهرويه. وكان المحـدث أبـو يعقوب يوسـف السـهمي معلماً لولـده أبي حمزة، فقد سـمع منـه رواياته عن شـيوخه الجرجانيـين عن فقهاء مكـة... كذلك كان أبو يعقوب يوسـف مصـدراً لابنه أبي حمـزة حيـث نقل عنه أسـانيده عن سـعيد بن المسـيب...

وكان حمزة بن يوسـف السـهمي القرشي مـن علماء جرجان الذين تأثـروا بعمق بالحياة الثقافيـة بمكـة. ويتضـح من الروايـات أنـه تأثر بهـذه الثقافة عـن طريقين أولهما: السـماع المبـاشر مـن العلـماء المسـلمين الذين نهلوا مـن علوم المكيـين، ومنهم شـيوخه الجرجانيين وغيرهـم من علماء الأمصار الإسـلامية الأخـرى الذين أخذ منهم خـلال رحلته العلمية. وثانيهـما: الاتصـال المبـاشر بعلماء مكـة والمجاورين بهـا والزائرين لها ومنهـم جرجانيون، والسـماع منهـم عندما كان يـؤدي فريضة الحج. وكان أول سـماع حمزة السـهمي للحديث بجرجـان في عـام ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م في وقـت كانـت جرجـان عامـرة بكبار الحفـاظ الذين تأثـروا بالثقافـة المكيـة ومنهم أبـو عبدالله بن عـدي وأبوبكـر الإسـماعيلي، والحافظ المتقن

---

١. السهمي، نفسه، أرقام ٣٦١، ٩٢٨، ٩٢٩ :٢٢٦، ٤٦٥.

٢. السهمي، نفسه، رقم ١٠٠٠، :٤٩٤.

الإمـام أبـو أحمد محمد بن أحمـد الغطريفي (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، وغيرهـم، فاغتنم والده ذلـك و بكّـر في السـماع، فأرسـله إلى مجالـس العلـم، فـكان يفهـم و يضبط ما يسـمع، ثم خـرج في رحلتـه العلمية سـنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م، فدخل أصبهـان والري ونيسـابور وغزنة وغيرهـا من بلاد خراسـان والأهـواز، ودخل العراق، فسـمع بالبصرة والكوفـة وبغداد، كـما سـمع بالشـام عـلى شـيوخ الرقـة ودمشـق وعسـقلان وتنيـس، كذلـك زار مـصر والحجـاز فسـمع بمكة وشـيوخه كثيرين جـداً صنف في تراجمهـم كتاباً خاصـاً هو معجم شـيوخه. وكان حمـزة واسـع العلم كثير الروايـة، وقد لازم أبـا عبدالله بن عبـدي وأبا بكر الإسـماعيلي وسـمع منهـما مصنفاتهما.[1] وهـذا البحث يمتلئ بنـماذج لرواياته عن شـيوخه بجرجـان وخراسـان والعـراق والشـام ومصر ومكة فـلا داعـي لتكرارها هنا.

وقـد صنف حمزة السـهمي تصانيـف جليلة والمعـروف منها تاريخ جرجـان، ومعجم شـيوخه، وكتـاب الأربعـين في فضائل العبـاس عمّ النبـي ﷺ،[2] وسـؤالاته للدارقطني في الجـرح والتعديـل هـو كتاب مشـهور. ولم يقتـصر تأثير حمزة السـهمي الجرجـاني في الحياة الثقافيـة بمكة على فترة وجوده بها فحسـب، بـل امتد هذا التأثير لعصـور تالية، فقد ظلت بعـض مؤلفاته مصـدراً هاماً من مصادر المعرفـة لعلماء مكة حتى القرن السـابع الهجري/ الثالـث عـشر الميلادي، فالفـاسي المكي يذكر أنّ أبابكـر بن عمر بن شـهاب الهمداني نزيل مكة وشـيخ الصوفية بالحرم المكي الشـريف (ت٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) سـمع من شـيخه أبي الفـرج يحيـى بـن ياقـوت البغدادي شـيخ الحرم كتـاب فضائـل العباس لحمزة السـهمي، ثـم حدّث بـه طلابه الذيـن كانوا يتحلقـون حوله برباط خاتون بالمسـجد الحـرام،[3] وكان الحافـظ شرف الديـن الدمياطـي أحد الذين سـمعوا هذا الكتاب على شـيخه ابن شـهاب

١. السهمي، تاريخ جرجان، :١١٤ـ١١٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢ : ١٢٢.

٢. الفاسي، العقد الثمين، تحقيق محمود محمد الطناحي، القاهرة، ١٩٦٩م، ح٨، :١٦.

٣. عن رباط خاتون أنظر: الفاسي، شفاء الغرام، ح١، :٣٣١؛ العقد الثمين، ح١، :١١٩.

الهمـداني، كذلك سـمعه منه المحـدث تقي الدين عبدالله بـن عبدالعزيز المهـدوي، و أورد حديثـاً منـه (أي مـن كتـاب فضائل العبـاس) في كتابـه «مجتبي الأزهـار في ذكر مَـنْ لقيناه من علـماء الأمصار».[1]

وتحتفـظ المصـادر بتراجـم بعـض الجرجانيـين الذيـن قدمـوا مكـة لأداء الفريضـة ثم رحلـوا عنهـا، دون أن تشـير إلى مسـاهماتهم في الحيـاة الثقافيـة بهـا. ورغـم عـدم وجـود إشـارات تـدل على تأثرهـم بالحياة العلميـة بمكة، فإننا نرجـح أنهم لم يتركـوا مثل غيرهم مـن الحجـاج هـذه الفرصة لكي ينهلـوا من علـو المكيين في هذا الموسـم الدينـي الثقافي. يؤيـد هـذا التخريـج أنهـم كانـوا مـن العلـماء، ثـم أنهـم واصلـوا رحلاتهـم العمليـة بعد رحيلهـم عـن مكـة، فقصـدوا بلدانـاً أخـرى للقـاء علمائهـا والأخـذ عنهم قبـل عودتهم إلى جرجـان. ومـن هـؤلاء الجرجانيـين أبو عمـرو إسـماعيل الجوزفلقي المقـرئ تلميذ أبي نعيـم الإسـترآبادي (وروي عنـه في صحيـح البخـاري) الذي قـدم مكة للحـج، ثم رحل إلى مـصر والشـام وكتب بهـا الحديـث.[2] ومنهم أيضـاً الفقيه إبوالقاسـم الخليـل بن محمد بـن عبـد الرحمـن مـن قريـة وسسـ ـن قـرب جرجـان، وكان قـد تتلمـذ على شـيوخ بلده وروى عنهـم، ونذكـر منهـم: والـده، ومحمـد بـن حمـدان الجرجـاني، والحافظ ابـن عدي الإسـترآبادي وغيرهـم. وخـرج إلى مكـة لأداء الفريضة ثم رحـل إلى العـراق ولكن المنية وافتـه في البادية سـنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٥م،[3] ويذكـر الخطيـب البغـدادي نقلاً عـن أحمد بن محمـد العتيقـي أنّ أبـا العباس أحمـد بن محمد بـن محمد بن جعفـر الجرجاني قـدم بغداد في طريقـه إلى الحـج في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، وروى بهـا عن بعض شـيوخها، ومنهم عبدالله ابـن إبراهيـم الأبنـدوني، و نعيم بن أبي نعيم الذي سـمع منه عن أسـانيده... ولا شـك أن هـذا الفقيـه الجرجاني قد سـاهم في الحركـة العلمية بمكة خلال موسـم الحـج، فأخذ عن

١. الفاسي، العقد الثمين، ح٨، رقم ٢٨١٨ ، :١٦ـ١٧.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ١٧٤، :١٥١.

٣. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٣١٦، :٢٠٩.

علمائها، وحدّث طلاب العلم هناك بما سمعه من شيوخه البغداديين.[1]

ومنهم أيضاً الفقيه أبو عبدالله محمد بن علويه بن الحسين الرزاز الجرجاني، وكان قد روى عن جماعة من شيوخ العراق والشام ومصر والحجاز ولقد ساهم ابن علوية في تشكيل ثقافة الجرجانيين وأفادهم بعلمه الذي حصّله على شيوخه ومنهم الحجازيون، فقد تتلمذ عليه بعض العلماء الجرجانيين الذين سيصبح لهم مكانة عالية في الفقه الإسلامي ونذكر منهم: أبا بكر الإسماعيلي وابن عدي الإسترآبادي، وإسماعيل بن سعيد وجماعة. وقد حدّث أبو بكر الإسماعيلي عنه ما رواه أبو شيبة إبراهيم بن عبدالله بن أبي شيبة عن أسانيده...

ومنهم أيضاً الفقيه أبو جعفر محمد بن علي بن دلان الجرجاني، وكان قد تغرب كثيراً في طلب العلم، فرحل إلى مصر في سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، وأخذ عن علمائها ومنهم أبو العباس عتبة الرازي، كما تردد على العراق عدة مرات وتتلمذ على شيوخه، كذلك شدّ الرحال إلى اليمين في عام ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م وقصد أبا عبدالله النقوي ليسمع منه، واختتم رحلاته العلمية بزيارة مكة المكرمة حاجاً في عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م.[2] ومن المرجح أنه ساهم في الحياة العلمية بمكة، فقد رأيناه يجوب الأقطار لينهل من العلم على أيدي شيوخها، وما أكثر العلماء المسلمين بمكة خاصة في موسم الحج. ولا شك أنه أخذ عنهم، وسمعوا منه. ومما يؤيد تخريجنا هذا أنّ السهمي (وكان قد سمع منه بجرجان رواياته عن شيوخه) قد رآه في مكة في موسم الحج عام ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م.[3] فلاشك أنه واصل السماع عليه والأخذ منه لاسيما ما حصّله من علم في رحلته الأخيرة إلى اليمن قبـ أن يحضر إلى مكة لأداء مناسك الحج.

---

١. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، م٥، رقم ٢٤٨٣ ، :٨٨ .

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٨٥٩، :٤٤٧.

٣. السهمي، نفس المصدر، :٤٤٧ـ٤٤٨.

كذلك تأثر الجرجانيون المقيمون بالبلدان الإسلامية الأخرى بالحياة الثقافية بمكة المكرمة وأثروا فيها. فالروايات تذكر أنّ أبا عبدالله الحسين بن عبدالله بن الحسين الجرجاني (ت٣٩٠هـ/ ٩٩٩م) المقيم في بعض قرى اليمن، كان يحج سنوياً حتى بلغ عدد حجاته خمسين حجة. ولا شك أنه أخذ عن كثير من علماء مكة والمجاورين بها طوال هذه السنين وروى عنهم، ومنهم الإمام الحافظ الثقة الزاهد أبو سعيد أحمد بن زياد بن الأعرابي البصري فقيه مكة محدث الحرم المجاور به (ت٣٤١هـ/ ٩٥٢م)، وكان من كبار المحدثين.[١] فقد تحلق حوله ونهل من فيض علمه، وكان مستمليه.[٢]

ويتضح من الروايات أن هذا الفقيه الجرجاني قد حدّث بما استفاده من علم ابن الاعرابي بمكة المكرمة، وأنّ كثيراً من الجرجانيين نهلوا من هذا العلم ونشروه ببلدهم، فالسهمي يذكر أنه أخذ عنه في المسجد الحرام عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م روايته عن ابن الأعرابي عن أسانيده عن عبدالله بن مسعود حديث النبيﷺ «نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه، فرب مُبلغ أحفظ من سامع»، حديث صحيح أخرجه ابن ماجة.[٣]

---

١. جاور أبوسعيد بن الأعرابي بالحرم ومات به سنة ٣٤١هـ، وكان قد صحب الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، والثوري وغيرهم، روى عنه الطبراني والخطابي، وصنف كتباً في الطريق. عن ترجمته راجع: القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق د. عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٢، ح١، :١٧٦؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ٢ : ٨٥٢، ح٣، المعين في طبقات المحدثين، رقم ١١٤٧ ، :١١١؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم ٨٠١ ، :٣٥٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ح٣، :٣٥٤.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٢٨٨ ، :١٩٩.

٣. ابن ماجه، باب من بلّغ علماً، سنن ابن ماجه، ح٢، رقم ٢٣٢ ، :٨٥. وقد أخرج ابن ماجه هذا الحديث بشواهد كثيرة عن بعض الصحابة نذكر منهم: زيد بن ثابت وجبير بن مطعم (ابن ماجه، نفس المصدر، ح٢ أرقام ٢٣٠ـ٢٣١ ، :٨٤ـ٨٥)، السهمي، نفس المصدر، :٢٠٠؛ الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ح١، :٤٤ـ٤٥.

ولم تقتصر مساهمة الجرجانيين في الحياة الثقافية بمكة على العلوم الدينية فحسب، بل كان لهم دور بارز في ميادين التاريخ و الأنساب. و من مظاهر مساهمة المؤرخين الجرجانيين في الحياة الثقافية بمكة، اهتمامهم الكبير بالمكيين وأنسابهم وتحريهم الدقة في أثباتها وتوثيقها. وكان القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز المؤرخ الجرجاني مصدراً هاماً لغيره من المؤرخين، ومنهم ابن عبدالبر القرطبي الأندلسي فيما يتعلق بأنساب المكيين فهو ينقل عن مصنف الجرجاني ... و قد أثنى ابن عبدالبر على مصداقية النسّابة الجرجاني، وقرظ تصحيحه لرواية الزبير و مصعب صاحب نسب قريش.[1]

مساهمة علماء جرجان في الحياة الثقافية بمكة من خلال تلاميذهم هناك

ولم تكن مساهمة العلماء الجرجانيين في الحياة الثفافية بمكة بشكل مباشر عن طريق وجودهم بها فحسب، بل ساهموا فيها أيضاً بشكل غير مباشر من خلال تلاميذهم من الأقطار الإسلامية الأخرى الذين وفدوا على مكة وحدّثوا بها بما سمعوه من شيوخهم الجرجانيين، فالرواية تذكر أنّ أبا عبدالله عبدالحميد بن عصام الجرجاني وكان محدثاً ثقة فيما يرويه، قد نزل همدان في عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، وحدّث بها، وأنّ بعض الهمدانيين تحلقوا حوله وأخذوا منه، ونذكر منهم: أحمد بن محمد بن أويس المقرئ. ويذكر السهمي أنّ تلاميذ عبد الحميد بن عصام الهمدانيين قد نشروا علمه بمكة وحدثوا برواياته هناك، فأخذها عنهم طلاب العلم المكيون والوافدون عليها ومنهم محمد بن إبراهيم بن علي الأصبهاني...[2]

---

١. ابن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ق٤، رقم ٣٣٤٣، :١٨٣٩؛ الفاسي، العقد الثمين، ح٨، رقم ٣٣٤٤، :٢١٦. وكان علي بن عبدالعزيز قاضياً بجرجان، وقاضياً للقضاة بالري، وصنف تاريخاً (السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٥٦٠، :٣١٨)، كما كان أديباً شاعراً (القزويني، آثار البلاد، :٣٥٠_٣٥١).

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٤٠٦، :٢٥١_٢٥٢؛ الطبراني، المعجم الكبير، ح٢٥، أرقام ١٨٣_٢٠٤، :٧٥_٨٠.

وجدير بالذكر أنّ هؤلاء الهمدانيين قد حدّثوا تلاميذهم الجرجانيين عند نزولهم همدان بروايات شيخهم عبد الحميد بن عصام.

الجرجانيون و الحياة الاجتماعية بمكة :

لم تقتصر مساهمة الجرجانيين الذين قدموا إلى مكة حجاجاً وطلاب علم في حياتها الثقافية فحسب، بل تفاعلوا أيضاً في حياتها الاجتماعية ولم يكونوا بمعزل عنها. ورغم قلة المعلومات المتوفرة في المصادر المتاحة بين أيدينا حول هذا الموضوع، غير أننا استنطقنا هذا النذر اليسير منها لنضع تصوراً حول طبيعة هذا التفاعل.

كان أهل جرجان ـ كما سبق أن ذكرنا ـ من أهل الأخلاق المحمودة والمروءات، كما كانوا موصوفين بالوقار والستر، واشتهر عنهم شغفهم بالعلوم والآداب وبذل الأموال الكثيرة في تحصيلها ببلادهم وشدّ الرحال في طلبها خارجها. مما يعني ارتفاع المستوى الاقتصادي والاجتماعي لـ ثير ممن وفد منهم إلى مكة. فالفقيه سعيد بن عبد الواسع الدارمي الذي اصطحب ابنه عبد الواسع بن سعيد إلى مكة لأداء فريضة الحج في سنة نيف و مائتين للهجزة، كان من أثرياء جرجان. فقد ورث عن جده أبي طيبة عيسي بن سليمان الدارمي نعمة ظاهرة من الضياع والعقار،[1] كذلك كان الإمام أبو سعد الإسماعيلي بن الإمام أبي بكر الإسماعيلي الذي وفد مكة لأداء الفريضه و طلب العلم في عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م، من أثرياء جرجان، إذ كان لديه أموال كثيرة وضياع وعقار وتجارة واسعة.[2] ولقد كان بعض علماء جرجان الذين زاروا مكة من التجار مثل أبي القاسم عبيد الله بن أحمد البزاز،[3] ولا شك أنهم حملوا معهم بعض سلعهم

١. السهمي، تاريخ جرجان، :٢٤١، ٢٨٥، ٢٩٢.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ١٧٠ ، :١٤٨.

٣. السهمي، نفس المصدر، رقم ٤٦١ ، :٢٧٦؛ الفاسي، العقد الثمين، ح٧، رقم ٢٧٦٤ ، :٤٨٢.

لينفقوا من ريعها خلال إقامتهم هناك. ويؤكد هذا التخريج شهرة محاصيل جرجان ومنتجاتها التي كانت تحمل إلى سائر البلاد ومنها: العنّاب الجيّد والنِشاب والظروف والأطباق الخشبية خاصة المصنوعة من خشب الخَلنج، وشهرتها كذلك في صناعة ثياب الأبريسم الحريرية،[1] والمقانع القزّيات وأكسية الديباج التي كانت تُحمل إلى جميع الآفاق لاسيما اليمن ومكة.[2] ويذكر المقدسي أنه رأى الأكسية الجرجانية والطبرستانية تباع بمكة بمبالغ مالية كبيرة.[3] وهذا يدل على جوْدتها، والأرباح الكبيرة التي كان يجنيها تجاز البز الجرجانيون.

ونستدل من الروايات أنّ بعض الحاج الجرجانيين كانوا يحملون معهم بعض الأطعمة لاسيما التي كانت تشتهر بها جرجان، ليقتاتوا بها في طريقهم وفي أثناء إقامتهم بالحجاز، وكان بعضهم لاسيما التعجلين يعودون بفضلة طعامهم زاداً لطريق عودتهم. فالمقدسي يذكر أنّ الجرجانيين خاصة أهل بيار قد اشتهروا بصنع نوع من المعجنات يسمي آشروسنة (وكان يُصنع من الدقيق والسمن ويؤكل رطباً) عجيب لا ترى مثله في الدنيا، وأنه (المقدسي) رأى بعض أهل جرجان يحملون منها إلى مكة، ثم ردوه معهم إلى جرجان ولم يتغير طعمه.[4] ومن المرجح أنهم حملوا معهم أيضاً كميات كبيرة من التين والزيتون والبلح، حيث كانت جرجان تشتهر بكثرة نخيلها ووفرة محصوله.[5]

---

١. المقدسي، أحسن التقاسيم، :٢٨٤.

٢. اليعقوبي، كتاب البلدان، :٤٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢ :١١٩.

٣. المقدسي، أحسن التقاسيم، :٢٨٢؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، :٤٢١. وجدير بالذكر أن أصل بذر أبريسم طبرستان الذي كان يصنع منه ثياب الأبريسم الحريرية التي كانت تُحمل إلى مكة وتباع هناك بمبالغ كبيرة، كان من جرجان. لأنه كان كما يذكر المقدسي أزكى و أتم، وكان لا يصنع من بذور طبرستان حرير بتة (المقدسي، نفس المصدر، :٢٨٢).

٤. المقدسي، نفس المصدر، :٢٨٤.

٥. اليعقوبي، كتاب البلدان، :٤٦؛ المقدسي :٢٨٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان٢: ١١٩.

كما كان بعض المجاورين الجرجانيين بمكة من المستورين؛ فرغم انشغالهم بحياة الزهد والانقطاع للعبادة والاشتغال بالعلم، إلّا أنهم قد امتهنوا بعض المهن ليقتاتوا منها ولا يصبحون عالة على المجتمع المكي، ونذكر منهم: أبا عبدالله محمد بن حميد الوراق الذي عمل بالوراقة بمكة.[1]

ولا شك أنّ أثرياء الحجاج وطلاب العلم الجرجانيين أنعشوا المجتمع المكي من الناحية الاقتصادية، بما أنفقوه من نفقات كبيرة على مأكلهم ومسكنهم الذي يتناسب مع مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية، لاسيما أنّ بعضهم قد اصطحبوا أسرهم معهم لأداء الفريضة وطلب العلم.

ولم يتقصر تفاعل بعض أثرياء جرجان بـ لمجتمع المكي خلال وجودهم هناك على النفقات الكبيرة لمعيشتهم فحسب، بل كان بعضهم يتصدق على المحاويج والفقراء بالطعام والأموال تقرباً إلى الله، كما كانت دورهم هناك عامرة بإخوانهم الجرجانيين الذين رافقوهم في رحلة الحج وغيرهم من العلماء الوافدين والمكيين. ونستدل على ذلك من وصف السهمي لأخلاق الإمام أبي سعد الإسماعيلي، فكان فيه من الخصال المحمودة التي لا تُحصى كحسن الخلق وطلاقة الوجه والسخاء في الإطعام وبذل المال، كما يذكر السهمي الذي رافقه في رحلة الحج أيضا أنه (أي الإمام) لم يتغير عن خلقه الحميد، وأنه كان معظماً مبجلاً بمكة وفي جميع البلدان التي مرّ عليها في طريق عودته إلى بلده سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م.[2]

ومع ذلك فالأمر لا يخلو من وجود بعض الجرجانيين الذين كانوا عالة على المجتمع المكي، لاسيما الحجاج الفقراء والمجاورين من الزهاد والعُباد. وتجدر الإشارة إلى أنّ جرجان كانت تشتهر بكثرة الصوفية الذين كانوا يعرفون

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٨٤٣، :٤٤٤.

٢. السهمي، تاريخ جرجان، :١٤٧.

بالفقـراء.[1] ومما يؤيـد تخريجنـا بوجـود عـدد مـن الجرجانيـين الفقـراء وغـير القادرين بمكـة، أنّ أحـوال أهـل جرجـان الاقتصاديـة والاجتماعية قـد تبدلت وتغيرت لاسـيما في النصـف الثـاني من القـرن الرابـع الهجري/ العاشر الميلادي، بسـبب هـلاك أرزاقهم لمصـادرة بعـض الحـكام لأملاكهـم، وانعـدام الأمـن الـذي مكّـن جنـد الـترك وقطّاع الطـرق مـن الإغـارة عليهـم وسـلب بضائعهـم وسـلعهم.[2] وقـد انصرف هـؤلاء عن الكسـب والعمـل لينقطعـوا للعبـادة، فشـاع بينهـم الفقـر والعـوز، وعـاش معظمهـم عـلى الصدقـات والأُعطيـات التي كانـت تأتيهم مـن الحجاج الأثريـاء وأبنـاء البيوتات الأسـلامية الحاكمـة خاصة في مواسـم الحـج. فالروايات تذكـر أنّ أبا بكـر محمد بن علي الماذرائـي (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م)، كان يحمـل معـه إلى الحجـاز ـ وكان كثـير الـتردد عليـه لأداء الفريضـة ـ مبالـغ ماليـة كبـيرة وكميـات ضخمة من الطعـام والحبـوب والحلوى والثيـاب ليوزعهـا هنـاك، وكان لا ينـصرف عن الحجاز كـما يقول ابن سـعيد المغربي إلّا وجميـع مـنْ فيـه مسـتورون.[3] و عندمـا أدت جميلـة بنـت نـاصر الدولة فريضـة الحج في عـام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م، أنفقت أمـوالاً طائلة في مجـاوري مكة، وأمرت بكسـوتهم جيمعاً

١. القزويني، آثار البلاد، :٣٤٩.

٢. ابـن حوقـل، صـورة الأرض، :٣٢٤. و مـن صـور نكبات أهـل جرجـان الاقتصاديـة والاجتماعية؛ أنّ جنـد الأكـراد وغيرهـم مـن اللصـوص وقطّـاع الطرق كانـوا يغـيرون عليهم ويقطعون المسـالك والطـرق التجاريـة عليهم، وقـد هاجموا بضائع الفقيه أبي سـعد الإسـماعيلي وتجارته التـي كانت تأتيه مـن البلـدان المجـاورة كأصبهـان وخراسـان. كما أمر شـمس المعـالي قابـوس بن وشـ كير صاحب جرجـان بسـجنه ومصـادرة جميـع ضياعـه (السـهمي، نفـس المصـدر، رقـم ١٧٠، :١٤٨)، كذلـك نكـب الأمـير نفسـه كل مـن أبي نـصر محمـد الاسـماعيلي و أبي بـشر الفضـل بن محمـد حفيـد أبي بكر الإسـماعيلي بعزلهـما عـن مناصبهـما، وسـجنهما وصـادر أملاكهـما (السـهمي، نفسـه، تراجـم ٢٨٦، :١٩٨ـ١٩٩، ٨٨٣ ، :٤٥٢، ٦٠٨ ، :٣٣٣).

٣. ابـن سـعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، طبعـة جامعة فؤاد الأول، القاهـرة، :٣٥٠ـ٣٥٢، :٣٥٠، ٣٥٢ ؛ الزيعلي، مكـة وعلاقاتها الخارجية، :١٤٩.

تقربـاً إلى الله تعـالى وابتغـاء مرضاته.[١]

ومـن المرجـح أنّ الجرجانيين المجاورين في مكـة من الزُهّاد والعُبّاد والمشـتغلين بالعلم هنـاك، قـد اسـتفادوا مثل غيرهـم من المجاوريـن من النفقـات العامـة للدولة العباسـية، فابـن فهـد يذكـر أنّ علي بن عيـسي بن الجـراح الوزير في أيـام الخليفة المقتدر بـالله العباسي رتـب منـذ عـام ٣٠٦هـ / ٩٢٠ق، بـأ يُحمـل إلى الحرمـين الشريفـين والمجاوريـن بهـما وأربـاب الوظائـف بمكـة والمدينـة في كلّ عـام ٣٠٠ ألـف دينـار.[٢] ونسـتدل مـن أحدى الروايـات أنّ المجاوريـن بمكـة كانـوا يسـتفيدون أيضـاً مـن كميـات الـورق والأدوات الـ تابيـة الضخمـة التـي كانـت توفرها لهـ الحكومة.[٣]

ورغـم عـدم وجود أدلـة على أماكن إقامـة الحجـاج و المجاورين الجرجانيـين الفقراء، والصوفيـة في مكـة. غـير أننا نرجـح أن بعضهم لم يسـتطع كراء منـازل أو ربـاع لإقامتهم هنـاك، وأنهـم أصبحـوا بـلا مـأوى. ولعلّهـم أقامـوا في الأربطـة التـي أقامها أهـل الخير وأوقفوهـا لسـ ى الحجـاج الفقـراء والمجاوريـن الذيـن لا يجـدون مـأوى لهـم في مكة. ويدهـم هـذا التخريـج أنّ زهاد جرجـان ومتصوفيها قد اعتـادوا سـكنى الأربطة ببلدهم والإقامـة فيهـا مثـل ربـاط دهسـتان.[٤] ومـن الأربطـة بمكـة في الفـترة موضوع الدراسـة ربـاط السـدرة و كان في الأسـاس دار القوارير التي شـيدها حماد البربـري للخليفة هارون الرشـيد (١٧٠ـ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ـ٨٠٩م)،[٥] ويقع هذا الرباط بالجانب الشرقي من المسـجد

---

١. ابـن الجـوزي، المنتظـم في تاريـخ الملـوك والأمـم، حيـدر آبـاد، ١٣٥٩هـ، ح٧، :٨٤ ؛ الزيلعي، نفس المرجع، ١٤٩.

٢. ابـن فهـد، اتحـاف الـوري بأخبـار أم القـري، تحقيـق فهيـم محمـد شـلتوت، الطبعـة الأولي، مكتبـة الخانجـي، القاهـرة، ١٩٨٣م، (حـوادث سـنة ٣٠٦هـ) ح٢، :٣٦٥؛ الزيعـلي، نفسـه، :١٥٠.

٣. الزيعلي نقلاً عن البكري صاحب المسالك والممالك، نفسه، ١٥٠.

٤. المقدسي، أحسن التقاسيم، :٢٨٢.

٥. الأزرقي، تاريخ مكة، ح٢، :٧٥ ؛ الفاكهي، أخبار مكة، ٢: ٩٩، ح٤ .

الحـرام على يسـار الداخل إلى المسـجد مـن باب بني شـيبة، وكان هـذا الربـاط موقوفاً كما يذكـر الإمـام الفاسي منـذ عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م.[١]

وجديـر بالذكـر أنّ أهل جرجـان كانوا يشـتهرون بالحـذق والبراعة في عمـل الطوب النيـئ (الطـين) والبنـاء بـه، «حتـى لا تـرى رئيسـاً ولا عالمـاً إلّا ولـه فيه حـذق، بعضهم يبنـي خُصـاً أو يرفـع حائطـاً، لهـم هندسـة وفطنة في عمـل البناء من غـير تعلُـم».[٢] ولعلّ هـذا يدفعنـا إلى ترجيـح قيـام بعـض الصوفيـة والزهـاد الجرجانيـين بمكـة ممـن لا مأوى لهـم، ببنـاء أكـواخ مـن الطين وعُـرش (هي بيوت مـن عيـدان منصوبة ويُظلـل عليها) في الأوديـة والشـعاب لإقامتهـم وعبادتهم.

وكان للجرجانيـين مثـل غيرهـم مـن المسـلمين الذيـن اسـتقروا بمكة وجـاوروا بها، تأثـير في حياتهـا الاجتماعية من خـلال ظاهرة التـزاوج بينهم وبين المكيـات، حيث تركت هـذه الظاهـرة بصماتهـا الواضحـة عـلى المجتمـع المكـي. وجديـر بالذكـر أنـه قـد وردت في المصـادر أقـوال عـن بعـض الصحابـة في الترغيـ في نكاح نسـاء اهـل مكة، ولمـا كنّ يتمتعـن بـه مـن خصال حسـنة وأخـلاق حميـدة. ولعلّ هـذا الترغيـب في نـكاح المكيات كان وراء إقـدام الغربـاء عـلى الاقـتران بهـنّ، بالإضافة إلى الأسـباب الأخـرى التي تتعلق بطـول فـترة إقامتهم بمكـة، والرغبة في تحصين فروجهـم. وتحتفظ المصـادر بأمثلة متعددة لزيجـات بـين الغربـاء وخاصـة المجاوريـن وبين المكيـات، فتذكـر أنّ عدداً منهـم تزوجوا بمكـة، وكان لهـم بهـا أهل وولد وأمـوال، وكان بعضهـم خاصة الأثريـاء يبالغون في تلك الزيجـات حتـى إنّ أحدهـم تزوج سـتين امرأة أثنـاء إقامته بمكـة على مدار نصـف قرن.[٣]

---

١. الفـاسي، شـفاء الغـرام، ح١، :٣٣٠؛ الزيلعـي، نفسـه، :١٥٠. وعـن دار القواريـر أنظـر: الفاكهـي، أخبـار مكـة، ح٢، :١٦٦، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ح٣، :٢٨٧، ٣٠٠، ح٤، :٩٩.

٢. المقدسي، أحسن التقاسيم، :٢٨٢.

٣. الجعـدي، طبقـات فقهـاء اليمـن، :٩٢؛ الفـ سي المكـي، العقـد الثمـين، ح٧، :٤٤٤؛ الزيعـلي، مكة وعلاقاتهـا الخارجيـة، :١٥٠.

ويذكر السهمي أنّ أبا عبدالله الحسين بن الحسين بن عبدالله الجرجاني المقيم باليمن والذي كان يحج سنوياً، كان له بمكة أهل وأولاد وأموال.[1] ويبدو أنّ هذا الجرجاني كان يمارس بعض الأعمال ـ لعلّها التجارة بين اليمن ومكة ـ التي كانت تدر عليه هذه الأموال الكثيرة، وأنّ أولاده بمكة كانوا يراعونها طوال غيابه باليمن ويُنمونها. وكان لأبي القاسم الخيمي عبد الرحمن بن محمد بن الحسين الجرجاني المجاور بمكة ابن يسمى عبد العزيز، وكان على ما يبدو من رواية السهمي بمكة وباليمن.[2] ومن المرجح أنّ هذا المجاور اقترن بإحدى النساء بمكة وأنجب منها هذا الولد. يؤيد هذا التخريج انتشار ظاهرة التزاوج بين المجاورين والمكيات، كذلك طول إقامته بمكة التي دفعته للزواج ليحصن فرجه.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض أبناء العلماء الجرجانيين وأحفادهم قد نزلوا بمكة واستوطنوها، فالسهمي يذكر أنّ بعض أبناء وأحفاد الفقيه أبي القاسم عبدالله بن أحمد بن الجرجاني (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) نزيل البصرة، قد استقروا بمكة وسكنوها.[3] ولا شك أنهم صاروا جزءاً من نسيج المجتمع المكي وتأثروا به وأثروا فيه، لطول إقامتهم هناك.

* * *

ثمَّ يذكر المؤلف تحت عنوان : **الخاتمة ، يقول فيها :**

استعرضنا في هذه الدراسة صلة الجرجانيين بالحياة الثقافية والاجتماعية بمكة المكرمة من الفتح الإسلامي حتى بدايات القرن الخامس الهجري ؛ الحادي عشر الميلادي.

---

١. السهمي، تاريخ جرجان، رقم ٢٨٨، :١٩٩.

٢. السهمي، نفس المصدر، رقم ٤٢٤، :٢٦١.

٣. السهمي، نفس المصدر، رقم٤٥١، ص٢٧٣.

وأمكن تأكيد بعض الحقائق من خلال تحليل ومناقشة النصوص التي وردت بالمصادر.

وراح يذكر خمس عشرة حقيقة كما سمّاها، ونحن بدورنا نختار منها ما يتعلّق بما اقتبسناه وهو الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب، وهي:

ـ و أثرّوا فيها بعمق بالحياة الثقافية بمكة وأثروا فيها، وكانت مساهمتهم هذه عن طريق مجاورتهم بها، وزيارتهم لها، لأداء مناسك الحج والعمرة. فقد كانوا يتصلون بعلمائها والمجاورين بها والوافدين عليها، وينهلون من فيض علمهم. كذلك حدّثوا بها، فتحلق حولهم طلاب العلم المكيين وغيرهم من المجاورين والوافدين، مما ساهم في تشكيل ثقافتهم، ووصول بعضهم إلى مكانة سامية في الفقه الإسلامي.

ـ إنّ جرجان اشتهرت بكثرة بيوت العلم، وأن أرباب هذه البيوتات كانوا يحرصون على تخريج إولادهم في العلوم تخريجاً حسناً، فكانوا يصطحبونهم معهم في رحلاتهم العلمية إلى مراكز الثقافة الإسلامية ومنها مكة، ليتتلمذوا على شيوخها، ومن أشهر هذه البيوتات التي بلغ أفرادها مكانة مرموقة في الفقه الإسلامي بنو الدارمي، وبنو عدي، وبنو الإسماعيلي، وبنو السهمي.

ـ إنّ الجرجانيين الذين نهلوا من الثقافة المكية قد أفادوا تلاميذهم بجرجان وغيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى بهذه العلوم، مما ساهم على نشرها في الآفاق.

ـ إنّ الجرجانيين المقيمين بالبلدان الإسلامية الأخرى قد أثروا أيضاً بالثقافة المكية عند زيارتهم لها، وأنهم حدثوا طلابهم هناك بهذه العلوم.

ـ إنّ بعض العلماء الجرجانيين أثّروا في الحياة الثقافية بمكة عن طريق تلاميذهم من الأقطار الإسلامية الأخرى الذين حدّثوا بمكة بعلوم الجرجانيين.

ـ إنّ بعض الحجاج وطلاب العلم الجرجانيين الأثرياء قد أنعشوا المجتمـ المكي اقتصادياً واجتماعياً بما كانوا ينفقونه من أموال أثناء معيشتهم هناك، وبما كانوا

يُخرجونه من صدقات وأعطيات لفقراء المجاورين والزهاد والصوفية.

ـ إنّ بعض الجرجانيين من المجاورين والزهاد والصوفية الذين انصرفوا عن الكسب والعمل وتفرّغوا للعبادة وانقطعوا لها، كانوا يعيشون عالة ع المجتمع المكي. وكانوا كغيرهم من أشباههم يعيشون على الصدقات والأعطيات التي كانوا يحصلون عليها من الأثرياء لاسيما في مواسم الحج، وكذلك من النفقات العامة للدولة.

ثمَّ يستعرض المؤلف مصادر ومراجع بحثه القيّم هذا وهي:

أولاً: المصادر العربية وعددها واحد وسبعون مصدراً .

ثانياً: المراجع العربية الحديثة والمعربة وعددها ستة وعشرون مرجعاً .

وأخيراً يشير إلى المراجع الأجنبية ومواقع الانترنيت.